الإحباط السياسي في الشعر المعاصر

من ثورة ٢٣ يوليو حتى ثورة ٢٥ يناير

تأليف

د. أبو بكر إبراهيم لقوشة



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسـم الكتاب : الإحباط السياسي في الشعر المعاصر

المــــؤلف : د. أبو بكر إبراهيم لقوشة

رقـم الإيداع : ٢٠١٢ /٨٣٣٢

الطبعة الأولى ٢٠١٢



مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ _ ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

إهداء

إلى أرواح جميع الشهداء
الذين قدّموا دماءهم الغالية
قرباناً على مذبح الحرية
والكرامة الإنسانية



مقدمة

لابد من الاعتراف بأن السياسة تتحمل الوزر الأكبر فى حالات الشعور بالإحباط التى مر بها عدد كبير من الشعراء المعاصرين فخلال النصف الثانى من القرن العشرين مر الوطن العربى عامة، ومصر – على وجه الخصوص – بأحداث سياسية خطيرة. وقد تأكدت خطورة هذه الأحداث بما ترتب عليها من تداعيات وانحرافات سلبية تركت آثارها على كافة وجوه الحياة فى مصر، والوطن العربى .

ونظراً لأن قصائد الشعر الوطنى الصادق هى بمثابة المرآة؛ حيث تنعكس على صفحاتها الصادقة صورة العصر، وحقيقة تقلباته وتشتته، فقد اكتسبت شرعية البحث فى تلك الأحداث السياسية من خلال التركيز على مجموعة من الشعراء المصريين الذين عاصروا تلك الأحداث واكتووا بنيران سلبياتها المحبطة التى لا زالت فاعلة فى واقع الحياة فى مصر حتى وقتنا هذا.

تلك الأحداث التى أمكننى النظر إليها بعد توزيعها على ثلاثة اتجاهات داخلية، واتجاهين إقليميين:

أولاً: الاتجاهات الداخلية:

الاتجاه الأول : انهيار مبادئ ثورة يوليو ١٩٥٢ .

الاتجاه الثانى : حدوث نكسة ١٩٦٧ .

الاتجاه الثالث : إجهاض انتصار أكتوبر ١٩٧٣ .

أما الاتجاهان الإقليميان الخارجيان فهما:

الاتجاه الأول : تمزق العرب، وتشرذمهم.

الاتجاه الثانى : نكبة فسلطين .

وهنا لابد من التأكيد على أننى اعتمدت طريقة موضوعية حيادية بحتة فى تناولى للنماذج الشعرية التى تناولت تلك الأحداث السياسية؛ فإنطاق النصوص بما ليس فيها ليس مهمة الباحث الجاد، ولكن تكمن مهمته الحقيقية وتستقر فى تحقيق سعة وعيه ومخيلته لكل ما يبوح به النص الشعرى وكل ما استتر وطمر داخل تربته ؛كذلك حتى لا تحدث أى فجوات أو نتوءات بين ما يرشح به النص وينم عنه، وبين الزاوية التى أنظر منها إلى هذا النص ، وأتناوله من خلالها، وذلك حتى تتحقق الفائدة وتتوفر خاصية الصدق التى تضمن تعاطف القارئ ، وتفاعله فى آن معاً .

وبعد، فهذا مؤلف تناولت فيه الأحداث السياسية ولكن بإحساس الشاعر، كما حاولت فيه القبض على إحساس الشاعر من خلال تلك الأحداث السياسية التى اقتحمت نفس هذا الشاعر، وفرضت عليه الخوض فيها. كذلك أؤكد على أننى عمدت إلى ربط تلك الدراسة الأدبية بالواقع المادى المعايش ؛ بغية استخلاص النتائج والعبر فمن ملامح الماضى تتشكل قسمات الحاضر والمستقبل .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت فهو نعم المولى ونعم النصير.

د. أبو بكر إبراهيم لقوشة

الفصل الأول

انهيار مبادئ

ثورة يوليو ١٩٥٢



جاءت ثورة يولية ١٩٥٢م بأفكار مثالية، ومبادئ محددة دعت إلى تحقيقها فى واقع الحياة فى مصر، وهو ما جعل لتلك الثورة أصداءً مرنة أدت إلى استجابات شعبية واسعة أكسبتها شرعيتها فى المجتمع المصرى؛ فمبادئ تلك الثورة، وأفكارها قد اكتست برونق براق نتج أولاً: عن الطعن الدائم فى النظام الملكى البائد الذى قامت ثورة ١٩٥٢م على أنقاضه، وقد تمثل هذا الطعن فى اتهام ذلك النظام الملكى بالرشوة والفساد تارة، واتهامه بالخيانة والعمالة والتبعية للاستعمار البريطانى تارة أخرى .

فضلاً عن تردى الأحوال المعيشية والاجتماعية لدى الفرد العادى الذى كان يرزح تحت مطارق الفقر والجهل؛ ممثلاً فى الوجه القبيح الذى يتكشف عنه دائماً النظام الإقطاعى.

وثانياً: ما دعت إليه تلك الثورة، وطمحت إلى تحقيقه. وهو على النقيض من ذلك النظام البائد؛ من حيث مقاومة الاستعمار، وتحقيق الاستقلال وإحلال النظام الديمقراطى الجمهورى محل النظام الملكى. هذا على المستوى السياسى .

أما على المستوى الاجتماعى فقد قامت تلك الثورة بتحويل المجتمع المصرى من مجتمع رأسمالى إقطاعى إلى مجتمع اشتراكى تقوم فيه جميع مؤسسات المجتمع بالالتحام والتكاتف مع مجموع الشعب؛ من أجل إحداث التغيير اللازم لتحقيق التحديث والإصلاح فى شتى المجالات؛ للتمكن فى النهاية من «بناء مجتمع الكفاية والعدل»[1] .

هكذا استظلت ثورة ١٩٥٢م بتلك المظلة الواعدة، وتجاوزت ذلك بدعوة الشعب المصرى إلى ضرورة التشبث بمبادئ تلك الثورة الفتية.

وقد قامت أجهزة الإعلام بدورها فى الترويج لتلك الثورة، وتجميلها؛ لتلقى القبول والترحيب لدى فئات الشعب المصرى. لذلك كان من الطبيعي أن يتشبث الشعب المصرى بها، ويرى فيها المخلص والمجير؛ خاصة وأن تلك الثورة كانت «ثورة واعدة بآمال كثيرة عاش جيل الشباب فى ذلك الوقت يحلم بها سنوات طويلة»[2] .

---

(١) الشعر فى إطار العصر الثورى – د/ عز الدين إسماعيل ط١ – دار القلم – بيروت ١٩٧٤ – ص٤٨ .

(٢) المسرح الشعرى عند صلاح عبد الصبور – د/ نعيمة مراد محمد – الهيئة المصرية العامة للكتاب – سنة ١٩٩٣ – ص٥٢.

ولنستمع إلى الشاعر (فاروق جويدة) وهو يدلى بشهادته حول ثورة يوليو، فيقـول نثرا:

«أنا واحد من جيل نشأ وترعرع مع أحلام ثورة يوليو.. كانت خطب عبدالناصـر هى الدماء التى تتدفق فى عروقنا منذ كنا أطفالاً صغاراً. «إن قصة جيلى مـع ثـورة يوليـو قصة عجيبة.. فيها قدر كبير من الحب، وقدر أكبر من المـرارة. فيهـا أحـلام أبعـد مـن سقف هذا الكون.. وفيها انكسارات أعمق من أبعد نقطة فى أعماق الأرض. فيها رمـوز تلألأت.. وتهاوت.. ونجوم تألقت وسقطت.. ووعود خانت.. وأكاذيـب حاولـت أن ترتدى أقنعة الحقيقة.. وكان السؤال الذى يـدور فى ذهنـى دائمـاً: أيـن الحقيقـة؟ أيـن حقيقة العمر الذى ضاع»؟[1].

ولكن على المدى البعيد بدأت هذه الحقيقة تتكشف شيئاً فشـيئاً حتـى أفصـحت عما انطوى بداخل هذه الثورة – ممثلاً فى صورة القائمين عليها – مـن تشـتت وانقسـام وانعدام للخبرة.

وقد كان هذا الحال قد وصل بها إلى درجة من الانحدار إلى الحد الـذى لم يمكنهـا من تحقيق معظم ما وعدت ومنت الشعب المصرى من وعود وآمال؛ فعلى الرغم من أن معركة ١٩٥٦ قد قضت على ذيل الاستعمار «وتحديد الملكيـة اضـطلع بالقضـاء عـلى الإقطاع، كما أن القوانين الاشتراكية فى أوائل الستينات حـدت مـن رأس المـال، ومـع ذلك فالفروقات ما زالت موجودة»[2]. وليس أدل على ذلك من أن ثورة يوليو ١٩٥٢ قد أتت بمستويين «للمواطنة: يتصل الأول بالنصوص الدستورية التى تنص على المساواة، والعدالة، وعلى أن الناس مواطنون يتساوون فى الحقوق والواجبات .

ويتصل الثـانى بالتأسيس الاجتمـاعى لهـذا المفهـوم، أى إحسـاس المـواطنين

(١) من يكتـب تـاريخ ثـورة يوليـو (القضـية والشـهادات)- فـاروق جويـدة – دار الشـروق – ط١ – ٢٠٠٧– ص١٣، ١٤ .

(٢) المدينة فى الشعر العربى المعاصر – د/ مختار على أبو غالى – المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . ـالكويت -١٤١٥-١٩٩٥م ص ١٤٣.

ووعيهم بأنهم متساوون وأنهم جميعاً مواطنون. إننا عندما نتوجه بأسئلة إلى الناس حول هذا الموضوع فإنهم يجمعون على أن الناس جميعاً مواطنون لهم حقوق وواجبات. ولكن الممارسات الفعلية تكشف عن فتح آفاق لتمايزات تتضاعف يوماً بعد يوم»[1]

«وتبدو هذه التمايزات واضحة فى لغة الحياة اليومية للناس التى يحرص فيها الأفراد حرصاً على تمييز أنفسهم بألقاب ألغاها القانون بعد ثورة ١٩٥٢ مثل لقب «بك» و«باشا».

والغريب فى الأمر أن أكثر الناس استخداماً لهذه الألقاب هم المسئولون عن القانون تشريعاً وتنفيذاً وقضاءً. وينتشر الميل نحو استخدام هذه الألقاب غالباً بدرجة كبيرة لدى ذوى السلطة. وتأويل ذلك أن ثمة رفضاً داخلياً بقبول مبدأ المساواة»[2].

وهنا بدا «التناقض بين العقيدة والسلوك»[3] بعد أن «تحولت مبادئ العدالة والمساواة، وقيم العمومية التى كان الناس بمقتضاها يتساوون فى الحصول على فرص الحياة، والتى حكمت فكر حقبة الستينات، فى سلوك الناس اليومى إلى مجرد مبادئ تكتب على الورق»[4].

هكذا تكون آمال وطموحات عدد من الشعراء المصريين – التى عقدوها على ثورة يوليو – قد تبددت بوادرها، وتلاشت بوارقها بين غيامات واقع تلك الثورة.

لذلك سرعان ما أحسوا «بخيانة الثورة لآمالهم والعبث بحرياتهم والزيف الذى ملأ الحياة من حولهم»[5]؛ ومن ثم فقد قام هؤلاء الشعراء بما يمكن أن نسميه (الثورة المضادة) – إن صح التعبير –؛ «فقد كانوا ينتقدون ويثورون على أساس من قيم ثابتة، ومثل مكتسبة، وأهداف محددة نادت بها ثورتهم وظنوا أنهم قد حققوها، ومن ثم كانت

---

(١) تناقضات الحداثة فى مصر – د/ أحمد زايد – الهيئة المصرية العامة للكتاب –٢٠٠٦م ص١٤٣ .

(٢) السابق ص١٤٣، ١٤٤ .

(٣) الاتجاه الواقعى فى الشعر العربى الحديث فى مصر – د/ ثابت محمد بدارى – ط السعادة ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م ص١٣٧ .

(٤) تناقضات الحداثة فى مصر – د/ أحمد زايد – ص١٣٩، ١٤٠ – بتصرف .

(٥) قيم فنية وجمالية فى شعر صلاح عبد الصبور – د/ مديحة عامر – الهيئة المصرية العامة للكتاب – سنة ١٩٨٤ – ص١٧١ .

ثورتهم أدل على المرارة الناشئة عن الإحباط وخيانة المبادئ والأهداف»[١].

وهأنذا أسوق مجموعة من النماذج الشعرية التى جاءت على لسان عدد من هؤلاء الشعراء المصريين الذين عاصروا وعود ثورة يوليه، وأمنياتها الطامحة، ثم عاصروا إحباطهم وخيبة أملهم فيها «فعاشوا زمناً من الأمل واليأس العظيم»[٢].

لذلك كان من الطبيعي أن يصير الشعور بالإحباط حليفاً تقليدياً لهؤلاء الشعراء الذين آمنوا وصدقوا ما جاءت به ثورة يوليه من مبادئ وأفكار ثم كان إحباط فيها هو نصيبهم الأكبر منها.

يقول الشاعر (أحمد عبد المعطى حجازى) فى قصيدته (السجن):

«لى ليلة فيه

وكل جيلنا الشهيد

عاش لياليه

فالسجن باب، ليس عنه من محيد!»[٣].

-إن الشاعر يستخدم السجن (الرمز)؛ للدلالة على شعوره بالإحباط مما آل إليه الحال من التردى بعد أن تغنى الشعراء بثورة يوليو، وتعلقوا طويلاً بحبالها الواهية التى تقطعت وأسلمت عدداً كبيراً من شعراء هذا الجيل إلى الشعور بالضيق والخواء والعدم؛ مما جعلهم يشعرون أنهم فى حصار مادى دائم يعيق كل طموحاتهم الآملة. وذلك لأنهم أرادوا أن يلمسوا بأيديهم «القصيرة المجذوذة الأصابع»[٤] سماء أمنياتهم وطموحاتهم – على حد تعبير الشاعر صلاح عبد الصبور- .

وهو ما أشعل فى نفوس هؤلاء الشعراء تناقضاً هائلاً أذكى لهيبه وعود الثورة الواعدة وأمنياتها الطامحة إلى الحصول على الحريات وتحقيق العدالة الاجتماعية .

ونلاحظ أن الشاعر (أحمد عبد المعطى حجازى) فى قصيدته السابقة يتلاعب

(١) الاتجاه الواقعى فى الشعر العربى الحديث فى مصر – ثابت محمد بدارى – ص١٤٣ .

(٢) على مشارف الخمسين صلاح عبد الصبور – دار الشروق – ط١ – ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م- ص١٠.

(٣) الأعمال الكاملة للشاعر أحمد عبد المعطى حجازى –دار سعاد الصباح –١٩٦٦٣م–ص ٢٢٣ .

(٤)انظر ديوان صلاح عبد الصبور. دار العودة – بيروت- ١٩٨٦م- ص٢٠٤ .

بضمير المتكلم (المفرد والجمع)؛ حيث نجده يبتدئ قصيدته بضمير المتكلم المفرد (لى)؛ ليعكس هول المأساة، وقسوة وقعها على نفسه، والتصاقها به. ثم ينفذ مباشرة إلى رحابة الجمع (كل جيلنا)؛ ليبرز أن مأساة هذا الشاعر لم تكن ذاتية فردية، ولكنها مأساة جيل بكامله آمن بالثورة وأهدافها المعلنة ثم خاب أمله فيها.

فالشاعر استخدم حرف العطف (الواو) فى قوله (وكل جيلنا)؛ ليصل تلك الجملة بسابقتها؛ إذ إنها مأساة كلية غير قابلة للفصل أو التجزيء؛ ويؤكد ذلك استخدام الشاعر الفعل الماضى (عاش)؛ لإبراز مدى ثبوتية ورسوخ هذا السجن (الرمز)، وطول معايشة هذا الجيل لهذا الحصار النفسى الرهيب.

وكلمة (لياليه) تعكس مرارة هذا الإحساس الساحق بالحصار والقمع؛ فالليل بيت الهواجس والوحدة والظنون. أما النهار فيجد فيه الإنسان الأنس، ويتناسى مواجعه. ويلاحظ أن الشاعر استخدم بعد ذلك مباشرة حرف العطف (الفاء) فى قوله (فالسجن باب ليس عنه من محيد!)؛ لإعطاء صورة سريعة عمقها النفى المنتهى بتعجب، فهو يتعجب مما آل إليه حال جيله؛ فالآمال والطموحات الطليقة تجابه بمجموعة من العوائق والسدود الراسخة التى قامت بسحق كل تلك الآمال والطموحات!

والشاعر يعود ويكرر كلمة (السجن) فى بداية الفقرة التالية، ولكن قد أفصح هذه المرة عن حقيقة هذا السجن، إنه سجن نفسى، وحصار معنوى عانى منه الشاعر وأبناء جيله الذين خدعوا فى حقيقة هذا الواقع الثورى الجديد الذى أعطاهم وعوداً وأمنيات بلا حدود ثم مارس معهم كل صنوف القمع، ولم يتحقق لهم ما وعدوا به، فانطوت قلوبهم على مستكنات موجعة:

والسجن ليس دائماً سوراً، وباباً من حديد
فقد يكون واسعاً بلا حدود
كالليل.. كالتيه
نظل نعدو فى فيافيه
حتى يصيبنا الهمود» [1].

---

(١) الأعمال الكاملة للشاعر أحمد عبد المعطى حجازى – ص٢٢٣ .

هناك بون شاسع بين هذا الصوت الصادر عن الشاعر فى منتصف الستينيات الذى غلفه الشعور بالإحباط، وبين صوته الذى كان قد صدر عنه من قبل - في منتصف الخمسينيات - وقد بدا على هذا النحو من الانتشاء والإيمان بالثورة وما دعت إليه:

«ثوره

تنتفض الأعماق الحره

تهوى مدن

تتعارك مخلوقات النور ومخلوقات الحفره»

«حين نثور

ما أجملنا يوم الثوره

يوماً نعرف فيه الصدق»[1].

وقوله أيضاً:

«فلتكتبوا يا شعراء أننى هنا

أمر تحت قوس نصر

مع الجماهير التى تعانق السنى

كأنها أسراب طير

تفتحت أمامها نوافذ الضياء»

«فلتكتبوا يا شعراء أننى هنا

أشاهد الزعيم يجمع العرب.

ويهتف «الحرية.. العدالة.. السلام».

-«يا مؤرخى الزمان

فلتكتبوا عن شاعر كان هنا

فى عهد عبد الناصر العظيم!!»[2].

---

(١) المصدر السابق نفسه - ص١٥٦، ١٥٧ .

(٢) السابق نفسه - ص٨٥ - ٨٧.

ومثل قوله كذلك:

«الكلمة طير

عصفور حر

والكلمة سحر

أربعة حروف صادقة النبره

حاء

راء

ياء

هاء

تشعل ثوره»[1].

إن الشاعر يوزع كلمة (حرية)؛ ليحتل كل حرف منها سطراً بكامله، لأن الشاعر يقصد الإطالة قدر ما يستطيع للمعايشة التامة، والحلول بين أركان تلك الكلمة الجليلة التى ظن الشاعر أن رجال ثورة يوليو سوف يدعمونها، ولم يخطر بباله قط أنهم سيحاصرونها أو يسجنونها .

ولكنْ بدَا واضحاً أن الحرية قد قمعت، وأن القيود والحدود الصارمة قد فرضت بكل أشكالها لمحاصرة الحرية، وسجنها وتفريغها من محتواها العظيم.

ولم يقف هذا الواقع الثورى الجديد عند حدود قمع الحريات، ولكن ذلك كان إيذاناً بتشكيل مجتمع جديد يتلاءم مع هذا الواقع المشوه، وهو مجتمع الزيف والتضليل والخيانة؛ يتضح ذلك عندما يتوجه الشاعر إلى صديقه الراحل «وحيد النقاش»؛ ليبثه إحباطاته التى منى بها لما رآه من أفعال رجال الثورة:

«يا أيها الراحل المتعجل ألق الرحال

---

(١) (مدينة بلا قلب)، (أو راس)، (لم يبق إلا الاعتراف) جـ١ ثلاثة دواوين شعرية – أحمد عبد المعطى حجازى– الهيئة المصرية العامة للكتاب – سنة ٢٠٠٦ – ص١٩٣ .

برهة

واملأ العين مما يحبط بنا من قذى ودمامه!

إنهم يأكلون لحوم الصغار

ويخترعون مشانق للريح تستلها

ويظل القتيل يعيش، ويغشى المقاهى،

ويعشق زوجته، وينام،

ويكتب فى جاره للمباحث نثراً وشعراً

وفى عينه جثث الأصدقاء،

وفى فمه الكلمات القديمه!

إنهم ينشئون مدائن فوق الهزيمه

إنهم يعدون بأزمنة من خراب ويأس

ويتخذون لها حرساً وحكومة»[1].

عمد الشاعر هنا إلى (تحضير الغائب) من خلال النداء (يا أيها الراحل)، والأمر (ألق، واملأ).

كما عمد إلى (تغييب الحاضر) المتمثل فى كلمة (إنهم) وتكراره تلك الكلمة. وهذا ربما يعكس أحد أمرين:

الأول: إعلان الشاعر مدى كراهيته تلك الأفعال الشائنة التى تصدر عن القائمين على أمر السلطة فى بلده، والتى ستؤدى بالمجتمع فى النهاية إلى مهاوى الخراب والانهيار.

الثانى: أن يكون الشاعر أراد من استخدامه هذا الضمير (الغائب) أن يتوارى ويستتر خلفه إذا هبت رياح مساءلته التى سيعقبها بالضرورة قمعه والتنكيل به .

ولكن هذا الشاعر الذى انتابته وأحاطت به مشاعر الإحباط سوف يتخلى عن هذا الضمير (الغائب)؛ ليواجه الرئيس (جمال عبد الناصر) مباشرة بهذا الخطاب الذى نم عن

(١) الأعمال الكاملة للشاعر أحمد عبد المعطى حجازى – ص٤٤٠، ٤٤١.

شعور دفين بمرارة الخيبة والإحباط:

«آه يا سيدى!

كما عطشنا إلى زمن يأخذ القلب،

قلنا لك اصنع كما تشتهى،

وأعد للمدينة لؤلؤة العدل،

لؤلؤة المستحيل الفريده

صاح بى صائح لا تبايع!

ولكننى كنت أضرب أوتار قيثارتى،

باحثاً عن قرارة صوت قديم!

لم أكن أتحدث عن ملك،

كنت أبحث عن رجل

أخبر القلب أن قيامته أوشكت

كيف أعرف أن الذى بايعته المدينة،

ليس الذى وعدتنا السماء؟!»

– كما نلمح هذا التردد الحائر الناتج عن تلك المراجعة النفسية التى تعصف بالشاعر:

«من ترى يحمل الآن عبء الهزيمة فينا

المغنى الذى طاف يبحث للحلم عن جسد يرتديه

أم هو الملك المدعى أن حلم المغنى تجسد فيه

هل خدعت بملكك حتى حسبتك صاحبى المنتظر

أم خدعت بأغنيتى،

وانتظرت الذى وعدتك به ثم لم تنتصر

أم خدعنا معاً بسراب الزمان الجميل؟!»[1].

(١) انظر المصدر السابق – ص٤١٣ – ٤١٦.

وفى لفتة تأصيلية بارعة يعود الشاعر بالقضية إلى جذور تاريخية متأصلة بداخل شخصية الإنسان المصرى الذى تعاقبت عليه أشكال شتى من أشكال الاحتلال والاستعمار والاستغلال والقهر، فأورثته الانقياد والتبعية العمياء؛ يتضح ذلك من قصيدة (عبد الناصر ٣). «وهى قصيدة من ثمار الستينات حين كان عبد الناصر فى أوج جبروته»[١].

«ماذا أقول !

أخاف أن يكون حبى لك خوفاً، عالقاً بى من قرون غابرات

فمر رئيس الجند أن يخفض سيفه الصقيل

لأن هذا الشعر يأبى أن يمر تحت ظله الطويل!»

«يظلمك الشعر إذا غناك فى هذا الزمان

لأنه لا يستطيع أن يرى مجدك وحده،

بدون أن يرى

ما فى الزمان من عذاب، وهوان!»[٢].

هكذا يكون الشاعر قد «بدأ يعى الواقع الحياتى وعياً حقيقياً ويدرك طبيعة الشعارات الجوفاء التى نادى بها النظام الحاكم، وعدم فعالية القوى الشعبية «الأغلبية» تجاه القوى السلطوية «الأقلية»[٣]، فكان من الطبعى أن يشق الشعور بالإحباط طريقه، ويتسلل إلى نفس هذا الشاعر الذى سمعناه يقول:

«دندنتى كئيبة

دندنتى صادقة

دندنتى نشاز!

(١) مملكة أحمد عبد المعطى حجازى الشعرية – حسن طلب الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٦م – ص٢٧.

(٢) الأعمال الكاملة للشاعر أحمد عبد المعطى حجازى – ص٣٥٤، ٣٥٥ .

(٣) الدم وثنائية الدلالة – د/ مراد عبد الرحمن مبروك – الهيئة المصرية العامة للكتاب – سنة ١٩٩٧٠ – ص١٣٠.

عموا مساء! أيها الأموات، وابدأوا العزاء

عموا مساء!

الضوء يمحو خلجات الوجه، فالأصوات أصداء

تدور

والنغم الخافت من ركن بعيد،

يجعل البسمة شيئاً كالرثاء

والكلمات تلتوى، وتختفى بين الصدور

ثم تعود للشفاه

ركيكة، كاذبة، تدور حول خوفها،

بلا انتهاء»[1].

ثم يمضى الشاعر إلى قمة الشعور بالإحباط عندما نسمعه يقول:

«إنى أشم فى أماسيك يا مدينتى،

ريح العفن

من أين جاء؟

وجهك فى ريح الصحارى طاهر طهر المطر

وساعداك من مياه النيل غيم وشجر

من أين يا مدينتى جاء العفن؟

النيل ليس راكداً

والريح من حولك توقف الرمال والصخور

ونحن فى قاعك واقفون من غير انتظار

يمضى بنا النهار فى إثر النهار

ونحن واقفون من غير انتظار»[2].

---

(١) الأعمال الكاملة للشاعر أحمد عبد المعطى حجازى – ص٢١٥، ٢١٦.

(٢) السابق نفسه – ص٢١٩.

كما لا يخفى الشاعر (أمل دنقل) شعوره الحاد بالإحباط من عدم وفاء القائمين على أمر الثورة بالتزاماتهم التى كانوا قد تعهدوا بها من قبل، ويلاحظ أن هذا الشاعر ينفذ مباشرة إلى قلب المأساة - دون مواربة أو استتار - فيقول:

«.. قلت لكم مراراً

إن الطوابير التى تمر..

فى استعراض عيد الفطر والجلاء

(فتهتف النساء فى النوافذ انبهارا)

لا تصنع انتصارا

إن المدافع التى تصطف على الحدود، فى الصحارى

لا تطلق النيران.. إلا حين تستدير للوراء

إن الرصاصة التى ندفع فيها.. ثمن الكسوة والدواء:

لا تقتل الأعداء

لكنها تقتلنا.. إذا رفعنا صوتنا جهاراً

تقتلنا، وتقتل الصغارا»[1].

إن هذه القصيدة يرجع تاريخ نشرها إلى عام ١٩٧٠، وهى «الفترة التى شهدت تكشف الحقائق - ساعة بعد ساعة - عن السوس الذى كان ينخر فى أصل الشجرة التى كانت تبدو عظيمة مثمرة وارفة، فإذا الثمر علقم مر، وإذا الظلال هجير وصحراء قائظة»[2]؛ فالأسلحة والمدافع التى كانت تتراص وتصطف على الحدود مع العدو الخارجى لم تكن موجهة إليه لصده والدفاع عن كرامة الوطن والمواطنين؛ ولكنها كانت موجهة إلى قلب المواطن المصرى الذى كان يدفع ثمن تلك الأسلحة من قوته؛ ليستخدمها الثوار بعد ذلك فى قمعه والتنكيل به، ومن ثم غاص الشاعر ثانية فى مرارة

(١) الأعمال الكاملة - أمل دنقل ص٢١٣ .

(٢) سفر أمل دنقل - تحرير عبلة الدوينى - ص١٢٨.

هذا التأنيب واللوم:

«قلت لكم فى السنة البعيدة

عن خطر الجندى

عن قلبه الأعمى، وعن همته القعيدة

يحرس من يمنحه راتبه الشهرى

وزيه الرسمى

ليرهب الخصوم بالجعجعة الجوفاء

والقعقعة الشديدة

لكنه.. إن يحن الموت

فداء الوطن المقهور والعقيدة:

فر من الميدان

وحاصر السلطان

واغتصب الكرسى

وأعلن «الثورة» فى المذياع والجريدة!»[1].

إن الشاعر قد حذر من عدم كفاءة القائمين على أمر الثورة، وانصراف همتهم إلى انتهاز كل الفرص التى تمكنهم من الوصول إلى تحقيق طموحاتهم وأطماعهم فى الوثوب على السلطة، حتى ولو كان ذلك على حساب أمن الوطن، واستقراره، ولو تم ذلك أيضاً فى أحلك الأوقات التى يكون فيها هذا الوطن فى أمس الحاجة لمن يفديه ويدافع عنه .

وذلك سيؤدى إلى نتائج كارثية وخيمة. وهنا يطل تساؤل: هل كانت معرفة الشاعر بدخائل هؤلاء الحكام الجدد، وتوقعه لما سيكون منهم قد شفع له، ووقاه السقوط فى وهدة الإحباط؟

الحق أن الأمر كان على العكس من ذلك؛ إذ يبدو أن هذا الشاعر قد أحبط مرتين:

(١) الأعمال الكاملة – أمل دنقل . ط ٢ – مكتبة مدبولي – ٢٠٠٥ م– ص٢١٤ .

مرة عند شعوره بالإحباط مع مجيء هؤلاء الحكام الذين كان يعلم – مسبقاً – أنهم غير أكفاء. ومرة ثانية كان هذا الشاعر على موعد مع الشعور بالإحباط مع وقوع الأحداث المأساوية التى حذر من وقوعها مراراً وتكراراً .

ولعل ما سبق تقديمه يدفعنا إلى القول بأن الشاعر (أمل دنقل) يعد من أصدق الأصوات تعبيراً عن الأحداث السياسية بكل تداعياتها الخطيرة، وبكل آثارها الإحباطية العنيفة؛ لرهافة حسه، ويقظة ضميره. وهو ما جعله ينفذ إلى أعماق هؤلاء الحكام؛ ليكتشف ما انطوت عليه دخائلهم من سطحية وزيف وخواء إلى درجة تستحق السخرية منها. وهو ما يتأكد من قصيدة «ميتة عصرية». وهى قصيدة يظهر فيها الشاعر مولاه (الحاكم) فى صورة المتسلط الساذج الذى لا يعرف شيئاً عن وطنه، ولا أعظم معالم هذا الوطن، وأهم أسباب ازدهاره وهو (نهر النيل). ويتضح ذلك أكثر عندما يدير الشاعر حواراً مع هذا الحاكم الطاغية الذى ما إن ترد أمامه صورة (نهر النيل) حتى نسمعه يقول عنه:

«من ذلك الهائم فى البرية ؟
ينام تحت الشجر الملتف والقناطر الخيرية؟
– مولاى: هذا النيل..
نيلنا القديم!
– أين ترى يعمل.. أو يقيم؟»
–«مولاى؟ هذا النيل..!!
– لا شأن لى بنيلك المشرد المجهول
أريد أن يبرز لى أوراقه الرسمية:
شهادة الميلاد.. والتطعيم.. والتأجيل
والموطن الأصلى.. والجنسية
.. حتى يمارس الحرية!»[1].

(١) انظر الأعمال الكاملة – أمل دنقل. ص٢١٩ – ٢٢١ .

ولكن أي حرية تلك المحاصرة بكل مفردات الرصد والتكبيل؟

إنها إشارة ساخرة إلى واقع اجتماعي وسياسي مزيف فرض على الناس تصديقه على الرغم مما يغشى هذا الواقع، ويتخلله من زيف وتشوه وتناقض تام:

«.. ويلقى المعلم مقطوعة الدرس،

في نصف ساعة:

(ستبقى السنابل..

وتبقى البلابل.

تغرد في أرضنا.. في وداعة..)

ويكتب كل الصغار بصدق وطاعة:

(ستبقى القنابل..

وتبقى الرسائل..

نبلغها أهلنا .. في بريد الإذاعة»[1].

إنه بلا شك واقع مزيف أسهم بنصيب وافر في تضليل الناس من خلال رسم ملامح تلك الحياة المشوهة التي لن تفرز غير مشاهد الزيف والسطحية واللامبالاة:

«حوائط، وملصقات..

تدعو لرؤية (الأب الجالس فوق الشجرة)

والثورة المنتصرة»[2].

ولكن الصحف والملصقات لم تكن هي وحدها الوسيلة الوحيدة التي استخدمت للهيمنة على الشعب المصري، والسيطرة عليه؛ فهناك وسائل أخرى استخدمت في سبيل تحقيق ذلك. وهي وسائل أشد فتكاً وقسوة استخدمها القائمون على أمر الثورة للسيطرة على مصائر الناس، والتحكم في مسار توجهاتهم، يقول الشاعر:

«لم نعد نسمع إلا.. الطلقات

(١) المصدر السابق – ص٢٢١، ٢٢٢.

(٢) السابق نفسه – ص٢٦٣.

(يفرض الرعب الطمأنينة فى ظل المسدس..)

- الطمأنينة فى ظل الحداد؟!»[1].

ولكن «أى نوع من الطمأنينة هذا الذى يفرضه الرعب فى ظل المسدس فى أعوام قبيل هزيمة ١٩٦٧؟ الحق أن الشاعر قد قال كلمته؟ ونبه فى حينه، ودق أجراس الخطر»[2] بعد أن ألمح إلى إحدى وسائل القمع والترهيب وهى (طلقات الرصاص) فى انتظار قصيدة أخرى تلوح فيها وسيلة أخرى من وسائل البطش والتنكيل هى (المشنقة):

«معلق أنا على مشانق الصباح

وجبهتى - بالموت - محنية!

لأننى لم أحنها.. حية!»[3].

ويطل (السجن) على المشهد ليشكل هو الآخر محوراً من محاور القهر والذل:

«لم أكن أملك إلا.. قمرا

(قمراً كان لقلبى مدفأة)

ولكم جاهدت كى أخفيه عن أعين الحراس

عن كل العيون الصدئة

.. كان فى الليل يضىء!

حملونى معه للسجن حتى أطفئه»[4].

هكذا تتضح ملامح المؤامرة التى راحت تحاك للمواطن المصرى البسيط الذى أمل فى أن تحقق له الثورة الحرية والعدالة الاجتماعية، ولكنها - بديلاً عن ذلك - خاصرته بالقمع والقهر والتنكيل والبطش، كما ضللت عقله بمجموعة من الأكاذيب الملفقة والمزيفة، ثم إن تلك الثورة فى النهاية لم تحقق تلك العدالة الاجتماعية المرجوة

(١) المصدر السابق - ص١٧٢ .

(٢) المدينة فى الشعر العربى المعاصر - د/ مختار على أبو غالى - ص٢٠٧ .

(٣) الأعمال الكاملة - أمل دنقل - ص ٩١ .

(٤) السابق - ص١٧٣، ١٧٤ .

منها التى طالما بشرت بها:

«(الناس سواسية – فى الذل – كأسنان المشط

ينكسرون – كأسنان المشط

فى لحية شيخ النفط!)»[1].

«هذه الصورة القاتمة تفتح نافذة سوداء لرؤية الجزء الثالث من عناصر الزمن، وهى رؤية المستقبل، التى لابد أن تكون امتداداً طبيعياً منبثقاً من سواد المرحلتين السابقتين»[2].

«آه... من يوقف فى رأسى الطواحين؟

ومن ينزع من قلبى السكاكين؟

ومن يقتل أطفالى المساكين..

لئلا يكبروا فى الشقق المفروشة الحمراء

خدامين

مأبونين

قوادين

من يقتل أطفال المساكين؟

لكيلا يصبحوا – فى الغد – شحاذين..

يستجدون أصحاب الدكاكين

وأبواب المرابين

يبيعون لسيارات أصحاب الملايين... الرياحين

وفى «المترو» يبيعون الدبابيس و«يس»

وينسلون فى الليل يبيعون «الجعارين»

(١) السابق نفسه – ص٣٣٩ .

(٢) المدينة فى الشعر العربى المعاصر – د/ مختار على أبو غالى – ص٢٣٣ .

لأفواج الغزاة السائحين![1].

ويمضى الشاعر فى التأكيد على مدى شعوره بالإحباط عندما أعلن عن يأسه وانكساره وانسحابه من الحياة؛ لأنه لن يتمكن من العيش بحرية وكرامة فى ظل حكم الثورة، فآثر الاستسلام والانحناء التام دون أى قيد أو شرط:

«يا إخوتى الذين يعبرون فى الميدان فى انحناء

منحدرين فى نهاية المساء

لا تحلموا بعالم سعيد..

فخلف كل قيصر يموت قيصر جديد»

- «فقبلوا زوجاتكم

إنى تركت زوجتى بلا وداع

وإن رأيتم طفلى الذى تركته على ذراعها.. بلا ذراع

فعلموه الانحناء..

علموه الانحناء..

علموه الانحناء..»[2].

«ولا يؤخذ على الشاعر هذه النهاية البائسة، فإن واقعه مرير، ورؤيته تمتد إلى الزمن الآتى، خوفاً على المستقبل المرعب الذى سيتولد عن صورة الحاضر القاتم»[3]؛ فمن الواضح أن هذا «الشاعر كان يعيش حالة الهزيمة التى لم تقع فى الخامس من حزيران ١٩٦٧ وإنما وقعت قبل ذلك بكثير كما هو واضح فى كثير من قصائد أمل نفسه»[4].

أما الشاعر (حسن توفيق) فإنه يتناول إحباطات جيله لما آل إلية أمر ثورة ١٩٥٢ فى صورة سردية مفصلة ابتدأها الشاعر منذ بداية حكم الرئيس (جمال عبد الناصر) بعد أن أطلق عليه الشاعر لقب (الثائر العملاق) الذى تم تقديمه إلى الناس فى صورة أسرفت

(١) الأعمال الكاملة – أمل دنقل – ص٣٣٩، ٣٤٠.

(٢) انظر المصدر السابق نفسه – ص٩٥ – ٩٧.

(٣) المدينة فى الشعر العربى المعاصر – د/ مختار على أبو غالى – ص٢٠٣.

(٤) سفر أمل دنقل – تحرير عبلة الروينى. الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٩م – ص٣٠٧.

فى التفاؤل بعد أن انطوت على مبالغات تقترب إلى حد السذاجة وقد قام الشاعر بعرض الوعود الواثقة، والأمنيات الطامحة التى بهرت الشعب المصرى مع مجيء هذا الثائر العملاق:

«وقال لنا صحابته انظروا هذا نبى الله نوح قد جاء ينقذكم من النيران والمحن

مباركة سفينته التى كانت سفينتكم.. فنحن اليوم إخوتكم

أتينا كى نخلصكم ونغسل جبهة الوطن

أتينا كى تطل اليوم فرحتكم وعزتكم»[1].

هكذا كانت ثورة ١٩٥٢ ثورة واعدة بتحقيق الحرية والرفعة والكرامة والعدالة الاجتماعية، ولكن هناك ما سيقلب الموازين، ويبدد المبادئ التى قامت من أجلها تلك الثورة. ويعلل الشاعر لذلك بالرحيل الفاجع لهذا (الثائر العملاق):

«وبعد رحيله الفاجع

تراءت جوقة الغربان

وهنأنا الجواسيس الذين أتوا من الكهف القديم إلى سرادق حزننا الجائع

وقيل لنا – بصيحة شامت لزج– لقد ألقى بكم زمناً إلى الشيطان

فلا تبكوه أو تحيوا لنا ذكراه بعد الآن!!»

- «تزاحمت الرؤى سحباً مقامرة ولا مطر سوى الضوضاء والتضليل

ولا زرع سوى الأحجار، والغيلان تنهش ما تبقى فى ضفاف النيل

وجيء لنا بقرصان لئيم الطبع عصبنا ليمضى بالسفينة فى مدى يمتد للغيب

فتهنا فى سفينتنا التى صارت سفينته

(١) الأعمال الكاملة – حسن توفيق– الهيئة المصرية العامة للكتاب– ٢٠٠٣– ص٢٣٧.

- «وتمضى فى العباب بنا سفينته فنعلنه ونحن نقلب البصرا
فلا نلقى سوى الطوفان
نحاول أن نرى شجراً
ولكن لم نجد إلا الخراب وظل عسكر عصبة الطاغوت والبهتان
نحاول أن نجد بشرا
ولكن لم نجد إلا سماسرة جبابرة أضاعوا جوهر الإنسان»
- «نحاول أن نرى الدنيا ولكن اللصوص تناهبوها دون أن ندرى..
ولم نلمح لهم أثرا
كأنا جوقة العميان»[1].

هكذا إذن تكون كل وعود وأمنيات ثورة يوليو قد ذهبت سدى، وتبخرت. وهو ما ألجأ الشاعر إلى تلك التساؤلات المضنية التى عكست شعوره العاصف بالإحباط:

«تطوقنا المجاعة.. آه حيث النار أمسكتِ السفينة من أعنتها
وراحت تفرخ الأنقاض
وتلقيها على الأرض التى غصت بحسرتها
لينضح نيلنا أسفاً خريفياً على عهد الفداء سدى إذا ما فاض
فيسأل بعضنا بعضاً: لماذا يقهر الفقراء
وتبقى أرضنا عفنة؟!
لماذا لم نعد نحيا ويسرق قوتنا كل الذين أتوا من الغرباء؟

ولكن إجابة الشاعر عن تلك التساؤلات لا تتأخر :

«لأنا منذ أسلمنا العنان وسلمنا لهم نظل نكافئ الخونة
نظل نكافئ الخونة»[2].

(١) المصدر السابق – ص٢٤٠- ٢٤٣ .
(٢) السابق ص٢٤٣، ٢٤٤ .

ولا غرابة فى أن يتجه تفكير الشاعر إلى هذا التعليل «فالإقطاع ورأس المال ما زالا يعيشان فى مهرباتهما من القوانين، كما أن فئات طفيلية نشأت مع العهد الجديد وكونت طبقة غير مسماة، تتمتع بمزايا الإقطاع ورأس المال، فالترف موجود لم يتغير»[1]، ورأس المال ما زال «موجوداً بشكل أو بآخر، يستفز الفقراء المجهدين»[2].

يمكن القول بأنه قد قام فى مصر ما يمكن أن نسميه (ثورة مضادة) قامت فى أساسها على هدم كل ما دعت إليه ثورة يوليو ١٩٥٢؛ من حيث كفالة حرية الممارسة السياسية، وتحقيق العدالة الاجتماعية. وفى ظل هذا الوضع المستهجن لم يكن من المستغرب أن ينتاب هذا الشاعر إحساس بالإحباط؛ لأن الثورة وعدت ثم لم تف بما وعدت به، بل إن كل ما وفرته تلك الثورة – فى منظور الشاعر - هو (جوقة الغربان)، ومجموعة من (اللصوص) و(الغيلان) و(الجواسيس) و(السماسرة الجبابرة) الذين تزعمهم قرصان فتح لهم باب السلب والنهب على مصراعيه، ومكنهم من السيطرة على مقدرات الشعب، والتحكم فى أبسط احتياجات حياته اليومية ممثلة فى (رغيف الخبز):

«أى حرية يزعم المفترون

أنهم زارعوها، وهم يسجنون الرغيف البسيط الذى نشتهيه

كى نجوع، فيخلو الطريق لهم ريثما يمكرون»[3].

وعلى ذلك فالشاعر (حسن توفيق) يتوافق تماماً مع الشاعر (أمل دنقل) فى قيام سلطة يوليو بقمع الشعب المصرى وقهره. ولكن الاختلاف بينهما اختلاف شكلى فقط فى طبيعة الوسائل التى تستخدمها السلطة فى سبيل تحقيق ذلك؛ فالشاعر (أمل دنقل) قد أشار إلى مجموعة من الوسائل التى تنحو منحى عسكرياً تضغط على الشعب المصرى، وتقمعه فأشار إلى المشانق وطلقات المسدس والسجون. أما الشاعر (حسن توفيق) فيرى سياسة التجويع وإفقار الناس هى الوسيلة التى وجدها قادة الثورة الجدد أكثر فتكاً وفاعلية وقدرة على سحق إرادة هذا الشعب؛ لتمرير ما يريده هؤلاء الحكام الجدد من

(١) المدينة فى الشعر العربى المعاصر د/ مختار أبو غالى – ص١٤٣ .

(٢) المرجع السابق نفسه والصفحة نفسها .

(٣) الأعمال الكاملة – حسن توفيق – ص٢٥٣، ٢٥٤.

قرارات دون رد مقاوم، أو معارضة تذكر.

والشاعر حسن توفيق يرى هذا الواقع المتردى المشوه محصلة طبيعية لتناقض هائل ترسب فى نفوس مجموعة من القائمين على أمر الثورة الذين احترفوا تزييف الواقع، وتضليل المجتمع المصرى فى فترة الستينيات:

«أسمع فى شارعنا الملطخ الجبين

عبارة منمقه

من رجل بدين

ينفض عن بذلته الفاخرة الغبار

مؤكداً: «ستشبعون فى غد وتنعمون

بمولد الفجر الحنون

وبعدها ينعم بالسيارة المرفرفه

فى ثقة تخترق الشوارع المسفلته»[1].

كما يتكرر المعنى ذاته فى قصيدة أخرى هى قصيدة (المناضلون) التى أفصحت عن تناقضات رهيبة، وفراغ هائل تمكن من القائمين على أمر المجتمع؛ بحيث لا يرجى معه أى فائدة:

«يا ضيعة الحقيقه

طائفة من اللصوص والمهرجين

تحترف الحديث عن قضايا الكادحين

فى غرفة أنيقة»[2].

إنها شريحة حاكمة غير سوية أفرزت شريحة سياسية أخرى ظهرت أكثر سوءاً، وأكثر تضليلاً وتمويهاً ومراوغة وقسوة:

«إنهم يسكبون الأكاذيب فى كل صبح يجيء

(١) المصدر السابق نفسه – ص٥٧٣، ٥٧٤.

(٢) السابق نفسه – ص٥٧٧.

حيث يغوون أفكارنا خلسة ثم يستأسدون

إنهم يقبلون

من بعيد لكى يطردوا من هنا كل وجه برىء

إنهم يسكبون الزمان الردىء

فوق أحلامنا ثم يستبشرون

إنهم حين يخشون هول السقوط

يطلقون الضباب المراوغ فى طرقات النهار

يجعلون الشوارع كالأخطبوط

يفرضون الحصار....»[1].

وفى قصيدة أخرى يقول:

-«فأيمنهم لص تطاول باسطاً	يديه على أرض الجياع محاصرا
-«وأوسط كهان الحقيقة موكل	بزرع الليالى - كل فصل - عساكرا
-«وأيسرهم يحيا حياة منعم	يعيش على ذل الجياع مشاطرا»[2]

يلاحظ أن الشاعر قد خلع على تلك الشريحة الحاكمة كل صفات الخسة والدناءة والاستغلال؛ كما بدا من قصيدته (قصة الطوفان من نوح إلى القرصان)، وكما بدا أيضاً من قصيدته (الضياع فى المدى القاسى)، حيث أطلق الشاعر على القائمين على أمر المجتمع «الأعوان والصبيان والكلاب»[3].

كما يلاحظ أن الشاعر لم يستعمل ضمير (المخاطب) بكثرة فى مواجهة مباشرة معهم، ولكنه استخدم ضمير (الغائب الجمع). وكأننا بالشاعر يريد أن يشير إلى أن تلك الطبقة الحاكمة قد تمادت فى غيها إلى الحد الذى لن ينفع معه توجه الشاعر - أو غيره - إليهم بأى نصح يمكن أن يحدث فيهم أى تأثير يرجى. لذلك عمد إلى التعرض لسيرتهم

(١) السابق - ص٤٢٤، ٤٢٥ .

(٢) انظر المصدر السابق - ص٤٨٠ - ٤٨١ .

(٣) انظر السابق نفسه - ص٤٠٨ .

عن طريق ضمير الغائب الذى يعكس أيضاً رفض الشاعر النفسى لوجود مثل هؤلاء الحكام على رأس السلطة فى مصر. ولأنه يعجز تماماً عن تغييبهم فى عالم الواقع فقد لجأ إلى تغييبهم تغيباً صورياً عن طريق ضمير الغائب. وكأن الشاعر يتمنى غياب هؤلاء الحكام، ورحيلهم عن واقع الحياة فى مصر الذى شوهوه؛ بسوء استغلالهم لسلطاتهم.

ومن الملاحظات التى بدت خلال القصائد السابقة التى تم عرضها أن الشاعر دائماً ما يستخدم ضمير المتكلم (الجمع)، ونادراً ما يستخدم ضمير المتكلم (المفرد). وفى ذلك إشارة إلى عمومية الشعور بالإحباط، ومدى تأثيره الساحق على الشاعر وعلى غيره من أبناء جيله من مختلف الطبقات والشرائح التى تكون نسيج المجتمع المصرى الذين ضاعت آمالهم وطموحاتهم التى كانوا عقدوها على ثورة يوليو فكان الإحباط نصيبهم منها بعدما تخلت عن أفكارها ومبادئها، ونكثت وعودها وعهودها، فصار الناس إلى درجة من التردى والتخلف ربما أسوأ مما كانت عليه فى عهد الملكية وقبل الثورة:

«لم يبق من روما سوى روما التى تبكى على أبنائها المتمزقين
والبحر مرآة.. صديد البؤس منعكس عليها، والسماء جرائد مفتوحة
أو مغلقة
لكنها- بعوائها -- تحكى عن الكذب المبين
قالوا بأن الزرع زاه... والحقوق مشققه!!
قالوا بأن الحب عنوان لنيرون الأمين
مع أنه يتنفس الأحقاد من لغة الثعالب، والمخاطر محدقه
قالوا بأن زنازن الزمن المخضب بالدماء وبالوساوس والأنين
قد هدموها وانتهت، لكنهم نهبوا قصور الراحلين، وأسلموا آمالنا
للمشقة!!»[1]

(١) المصدر السابق- ص٢٥٥ .

إن الشاعر (حسن توفيق) حين يرمز بروما لمصر لا يجيد التخفى وراء الرمز؛ لأن ضمير المتكلم (الجمع) فى (آمالنا) قد فضح أمره فى النهاية؛ لنكتشف أنه يتحدث عن مأساة محلية صنعها حكام أغرقوا المجتمع فى الزيف والتضليل والخداع، حتى تشوهت ملامح هذا المجتمع، وبدت عليه أمارات التخلف والضعف التى غلفته وتغلغلت فى أعماقه. وهو ما أودى بالشاعر إلى مهاوى الشعور بالإحباط الذى أعلن عن سيطرته على الشاعر، وتمكنه من نفسه:

«يا موجة الأحزان

كم فيهم الليلة يا طارقتى من خائف أو خائر أو جائع

يا موجة الأحزان يا رفيقة الذين لم يغيروا الوجوه والثياب

والألوان

اندفعى... وأغرقينى فى مداك الفارع»[1]

وكما تلاقى (حسن توفيق) مع (أمل دنقل) و(أحمد عبد المعطى حجازى) فقد تلاقى معهم جميعاً الشاعر (فاروق جويدة) الذى سقط - هو الآخر - فى هوة الشعور بالإحباط ممن يدعون أنهم ثوار؛ ليتحكموا فى مصائر الناس، وليواصلوا قمع ما تبقى لهم من حريات. والشاعر يعرض هذا الشعور بالإحباط الذى منى به فى هؤلاء الحكام المضللين فى أسلوب ملىء بالتهكم والسخرية:

«الكل يحمل فى بلادى اسم ثائر

هتكوا بكارة عمرنا المغزول من ضوء المشاعر»

«- قالوا بأن الوحى يأتيهم إذا شاءوا

وأن البطش دستور الشعائر

قالوا بأن الأنبياء جميعهم

فى الأصل من جنس العساكر

(١) انظر السابق - ص٤٠٩.

آه.. وآه منك يا زمن العساكر»[1]

إنه (زمن العساكر) الذى حذر منه من قبل الشاعر (أمل دنقل)، وأشار إلى عدم كفاءته، وعدم صلاحيته لحكم البلاد، والدفاع عنها. إنهم جميعاً لا يهمهم إلا مصالحهم ومطامعهم.

لذلك احتل هذا الصراع على السلطة جزءاً مهماً من تاريخ ثورة يوليو. والشاعر فاروق جويدة يشير إلى ذلك فيقول- نثراً-:

«كان صراع السلطة جزءاً مهماً فى تاريخ ثورة يوليو.. وقد دفع الشعب المصرى ثمن هذا الصراع.. دفعه فى أزمة مارس ٥٤، عندما استباحت الثورة تجربة مصر الديمقراطية الوليدة.. ودفع الشعب المصرى ثمن هذه الصراعات أمام مراكز القوى وأجهزة التعذيب والسجون والمعتقلات.. ودفع الشعب المصرى هذا الثمن فى حرب اليمن ولجان تصفية الإقطاع ونهب ثروة مصر.. و.... أيضاً فى نكسة ٦٧، وهى أكبر خطايا الثورة. ثم دفعه مرة أخرى فى صراعات ١٥ مايو، و٥ سبتمبر، وسجن المعارضة المصرية بكل رموزها فى ليلة واحدة.. هذا كله تاريخ مجهول لا نعرف عنه شيئاً، ابتداء بصراع عبد الناصر مع محمد نجيب وانتهاء بصراعه مع عبد الحكيم عامر. ثم أكمل الرئيس السادات مسلسل الصراع الدامى على السلطة مع من بقى من رجال الثورة فيما سمى بثورة التصحيح، كان موقف عبد الناصر مع سلاح الفرسان صراعاً على السلطة. وكانت معركته مع محمد نجيب.. صراع سلطة، وكانت قصته مع عبدالحكيم عامر صراع سلطة.. وكانت معركة السادات مع مراكز القوى صراعاً على السلطة.. وكانت معركته من المعارضة صراعاً من أجل السلطة، وكانت الضحية فى ذلك هى الديمقراطية، أمل مصر الغائب، ومستقبلها الغامض، وحلمها الذى لم يتحقق»[2].

معنى ذلك أن المواطن المصرى لم يكن حاضراً على جدول أعمال هؤلاء الثوار المتصارعين، اللهم إلا فى دفع الضريبة الفادحة التى يتكلفها؛ ثمن تلك الصراعات البينية. ومن ثم كان إرث المواطن المصرى من أعمال رجال الثورة، وصراعاتهم نصيباً

(١) كانت لنا أوطان – فاروق جويدة – ط ١ – ٢٠٠٧ – دار الشروق – ص٦٦.

(٢) من يكتب تاريخ ثورة يوليو – فاروق جويدة – ص١٠، ١١ .

وافراً من التجويع والقهر والذلة:

«لم يبق من ثوار هذا العصر..

غير سلالة الفئران..

تلتهم القلوب.. مع الضمائر

لم يبق من أمجادهم غير الليالى السود

واللقطاء والجوعى.. وسكان المقابر»[1].

إن الشاعر يكنى عن القائمين على أمر الثورة بـ(سلالة الفئران). وهو وصف يشى بمدى الخسة والوضاعة التى ينطوى عليها هؤلاء الحكام.

ومن جديد يطل التحكم فى (رغيف الخبز)، ويلوح أداة قمع وتسخير لإرادة الشعب المصرى بما يتوافق مع توجهات السياسة النفعية القمعية الجديدة:

«المخبرون يلوحون

على رغيف الخبز للجوعى

ويختبئون فى همس السرائر

هم يسكنون جلودنا

ويحدقون من الأظافر والحناجر

وأصابع الجلاد فى أعماقنا نار..

وفى دمنا خناجر..»[2].

إن ثنائية (التجويع/ الجلد) أصبحت الأداة المثالية والفاعلة فى طبيعة الحياة السياسية فى مصر، فلا حرية ولا عدالة اجتماعية ترتجى من نظام يحكم شعبه، ويقهره ويستغله على هذا النحو:

«يا أيها الجلاد

بين القمامة طفلة عرجاء

(١) كانت لنا أوطان – فاروق جويدة – ص٦٥.

(٢) السابق ٦٥.

يصرخ فى جوانحها نزيف»[1]

والشاعر لا يستبعد دول أجهزة الإعلام أداة طيعة فى يد الحكام استخدموها فى تزييف الواقع، والكذب على الناس بما يساعد على طمس معالم ما يموج به المجتمع فى ظل حكمهم من تهرؤ وتحلل مستندين فى ذلك إلى إرث كبير من الشعارات الجوفاء التى تملأ أسماع الناس، وتمنعهم عن رؤية الوجهة الصحيحة، وإدراك حقيقة الدائرة الرهيبة التى يدورون فيها:

«فى كل يوم يرتع الكذب الرخيص
على ضفاف الأمة الثكلى
فترقص موجة المذياع..
تزهو الشاشة الصفراء..
تنبت فى أيادى الناس مزبلة..
نسميها صحيفة»
- «فى كل يوم يخرج المذياع.. والصحف اللقيطة..
تعلن البشرى لشعب مات من زمن
ويبدو فى سواد الليل
كالعفريت أشباحاً مخيفه»[2].

إن الشاعر قد أشار إلى أبرز وسائل الإعلام، وهى (المذياع) (التليفزيون) و(الصحيفة) التى تلعب «دوراً مهماً فى تشكيل وجدان المواطنين، ولا تتوقف أهميتها عند هذه النقطة فحسب وإنما تتجاوز ذلك، لتلعب دوراً يعبر عن أفكار السلطة، فتغدو بوق دعايتها، فتروج لما يوافق أهدافها، وتطلعاتها وتتحاشى أو تقلل من شأن ما لا يتفق، وأهداف السلطة والسلطة- بدورها- تدرك أهمية هذه الوسائل، فتسعى لتكريس كافة إمكانات هذه الوسائل لخدمتها، وإخضاعها لرقابة مشددة»[3].

(١) السابق- ص٦٦، ٦٧ .
(٢) السابق – ص٥٧، ٥٨ .
(٣) صورة الدم فى شعر أمل دنقل – د/ منير فوزى. ط- ١ دار المعارف –١٩٩٥م – ص١٠٣، ١٠٤ .

هكذا تحولت ثنائية (التجويع/ الجلد) التى لازمت حكم العسكر إلى ثلاثية تشكلت أضلاع مثلثها من (الجوع، الجلد، التضليل).

ولكن لماذا كان ذلك كله؟! إنه واقع غريب مشوه حوى بداخله تناقضات جمة، ومفارقات رهيبة ملأت الشاعر بمشاعر الإحباط بعد أن أوقعته فريسة لتلك التساؤلات المضنية التى راحت تعتصره بعد أن استعصت على الفهم والحل:

«من أجل من.. يقتات أبنائى التراب؟

من أجل من .. نحيا عبيداً للعذاب؟

حزن.. وإذلال.. وشكوى.. واغتراب

يا سادتى.. قلبى يموت من العذاب

لمن العتاب؟

لمن الحساب؟

من أجل من.. تتغرب الأطيار فى بلدى..

وتنتحر الزهور؟»

-«يا سادتى.. عندى سؤال واحد

من أجل من.. يتمزق الغد فى بلادى؟

من أجل من.. يجنى الأسى أولادى؟»[1]

لقد اتضح أن هذا الشاعر يمزج إحباطاته بإحباطات المجتمع من حوله، ولا غرابة فى ذلك؛ فمصدر هذا الإحباطات واحد متمثل فى «هول الانفتاح الاقتصادى وعصابة (رجال الأعمال) التى ما زالت تحدث فى هذا الواقع جروحاً لا تندمل»[2]، وبذلك تكون قد انهارت مبادئ ثورة يوليو:

«لم يبق من ثوار هذا العصر

---

(١) ويبقى الحب – فاروق جويدة – ط٢ – ٢٠٠٨ – دار الشروق – ص٦٧، ٦٨ .

(٢) البنية الشعرية عند فاروق شوشة – د/ مصطفى عبد الغنى الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٥م – ص٤٧ .

غير جماجم القتلى..

وصوت الجوع..

والبطش العمى

صارت نياشين الزعامة

فى عيون الناس ..

جلاداً.. ونهر من دم

قد خدرونا بالضلال

وبالأمانى الكاذبات..

وبالزعيم الملهم»[1].

فى تلك الحالة يصبح من الوارد أن يعود الشاعر بذاكرته بعيداً؛ ليستعيد المبادئ والشعارات الرنانة التى ثبت زيفها وتهرؤها تماماً بعد أن تحطمت وتلاشت عندما اصطدمت بالواقع. وذلك على الرغم من استجابة الناس، وانقيادهم الأعمى لها:

«ما زلت أذكر عندما انطلقت وراء الأفق

أصوات تبشر.. عاد عهد المعجزات

قالوا.. وقالوا يومها

قالوا بأن الفقر يقتل فى النفوس عفافها

والناس تسجنها البطون

صاحت جموع الناس (فلتحيا البطون)

قالوا بأن الصبح حق لا يضيع

والأرض ملك للجميع

صاحت جموع الناس «فليحيا الجميع»

قالوا خراب الأرض فى أبنائها

(١) كانت لنا أوطان – فاروق جويدة – ص٧٣، ٧٤ .

والله وحد بيننا.. فى الرزق.. فى الأنساب

فى صمت القبور

صاحت جموع الناس «فلتحيا القبور»

قالوا لنا.. قالوا الكثير

بين الحدائق كانت الأشجار تعلو

مثل ضحكات الصغار

والحلم بين ملاعب الأطفال يلهو.. كالنهار»[١].

هذا ما قد (قيل) منذ سنين أما ما قد تم (فعله):

«سألوا علينا فى القطار

أعمارنا .. أخطاءنا

وصلاتنا.. وصيامنا

سألوا علينا الماء.. كيف يكون ملمس جلدنا؟

سألوا علينا الطين.. كيف يكون عمق قبورنا؟

فحصوا مع الخبراء نبض عقولنا

سألوا علينا الليل.. كيف نهيم فى أحلامنا؟

سألوا علينا الصمت.. كيف يكون دفء نسائنا؟

سألوا علينا.. كيف نبكى.. كيف نضحك..

كيف نصرخ.. كيف ننسى حزننا؟

لقد استباحوا سرنا

لم يتركوا شيئاً لنا»[٢].

هنا يبلغ الشعور بالإحباط عند هذا الشاعر درجة كبيرة تقف به على مشارف الجنون:

(١) شيء سيبقى بيننا – فاروق جويدة – ط٢ – ٢٠٠٧ – دار الشروق – ص٣٨، ٣٩.

(٢) السابق – ص٣٩، ٤٠ .

«ومضيت يا أماه أجرى.. ثم أجرى

ثم أصرخ فى جنون

فلقد نسيت الاسم والعنوان يا أمى

ترانى.. من أكون؟

سرقوا ثيابى.. أحرقوها

ثم راحوا يضحكون

ورجعت وحدى بالجنون

رجعت وحدى بالجنون»[1]

والشاعر يؤكد على شعوره بالإحباط حين يقول – نثراً – تعليقاً على ثورة يوليو: «لهذا يخطئ من يتصور أن التغيير هو بالضرورة نحو الأفضل؛ إنه فى أحيان كثيرة يحملنا للوراء»[2].



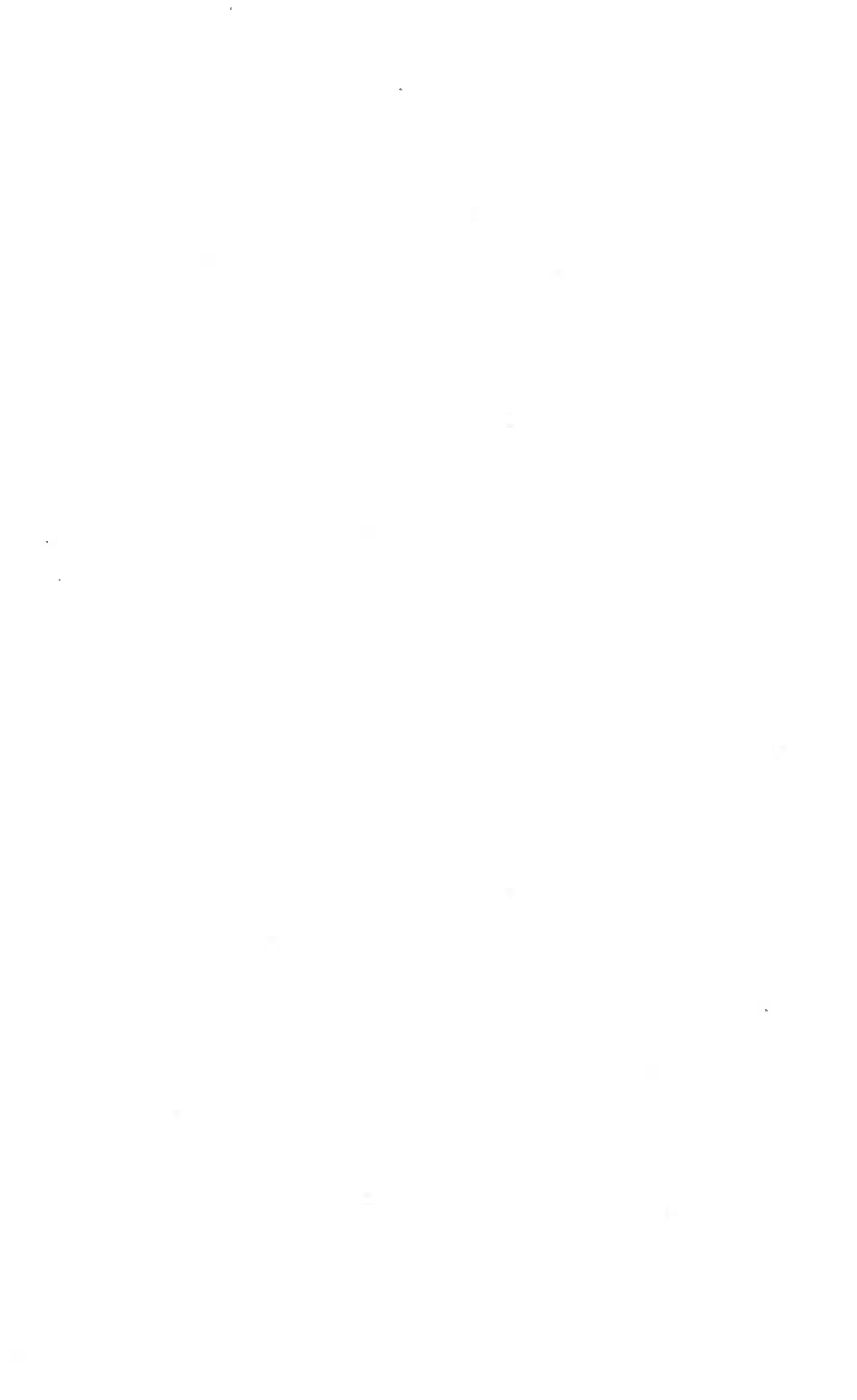
(١) السابق – ص٤٦ .

(٢) انظر من يكتب تاريخ ثورة يوليو (القضية والشهادات) فاروق جويدة ص٢١، ٧٦، ٨٧.



الفصل الثاني

حدوث نكسة ١٩٦٧م



تعد حرب السابع والستين أو حرب الأيام الستة من أسرع الحروب الوقائية الخاطفة التى تمت فى تاريخ الحروب المعاصرة على وجه العموم. كما تعد أيضاً تلك الحرب من أخطر الحروب التى شنت على مصر؛ بما تركته على جسد هذا الوطن من جروح وندوب وآثار عميقة غائرة لم يستطع أن يبرأ منها حتى مع مرور الأيام، وحتى أيضاً بعد حدوث نصر ٧٣؛ فقد تجاوزت آثار تلك النكسة كل حدود الزمن لتعلن عن توطنها وتأصيلها للعديد من التوجهات السياسية فى مصر حتى وقتنا هذا .

وحدوث نكسة ٦٧ يعد حدثاً مفصلياً فى تاريخ الصراع العربى الإسرائيلى بما تسبب عنه من آثار إحباطية كبيرة على المستوى الداخلى للمجتمع المصرى وعلى المستوى الخارجى أيضاً ممثلاً فى الصراع العربى الإسرائيلى .

فعلى المستوى الداخلى قلبت هذه الحرب الأوضاع وأوضحت العديد من المفاهيم الغامضة على الشعب المصرى؛ فقد كشفت هذه الحرب عن مدى ما انطوى عليه الضباط الأحرار أو القائمين على حكم مصر من تحلل وانقسام وانعدام الكفاءة فى إدارة الدولة فى وقت الأزمات.

كما كشفت أيضاً تلك النكسة عن كم الكذب والتضليل الذى امتلأت به أسماع وأبصار معظم شرائح المجتمع المصرى إبان حكم الضباط الأحرار.

أما على المستوى الخارجى فقد مكنت تلك الحرب لإسرائيل من احتلال أجزاء إضافية واسعة من الوطن العربى، وبالطبع كان تمصر من بين تلك الدول .

وهنا تكمن المفارقة؛ فبعد أن كان الجيش أداة طيعة فى يد قواد ثورة يوليو أو الضباط الأحرار وكان ذلك تحت شعار تحرير أرض فلسطين تحول اللعب على أوتار تحرير أرض فلسطين إلى كابوس كبير أفاق عليه شعراء مصر وغيرهم من مواطنى مصر ليجدوا أن أرضهم أيضاً قد احتلت؛ فغدت «القضية قضيتين: قضية فلسطين وقضية مصر»[1].

والحق أن هناك عدد من شعراء مصر المعاصرين قد تنبئوا بحدوث الكارثة، كما حملوا على عاتقهم عبء التحذير من وقوعها «لكن أحداً من القوى السلطوية لم يستجب

(١) فى الشعر المعاصر – د/ أحمد ماهر البقرى – مؤسسة شباب الجامعة – سنة ١٩٨٩ – ص ١٠٣.

لهم، وعندما حدثت الكارثة بالفعل، شعروا بفقدان التوازن نتيجة التناقض بين التصريحات الجوفاء والواقع الفعلى»[1].

«وفى ظل هذا التناقض القائم فى الواقع السياسى – بين ما هو كائن وما يجب أن يكون – شعر شباب وجماهير الشعب وخاصة الأدباء بالإحباط والانكسار، وانطلق الشعراء يعبرون عن مرارة الهزيمة وانكسار الحلم القومى»[2]. فقد «كانت الأحلام العربية واسعة فضفاضة، وكان الثوب العربى ضيقاً وممزقاً، فلا العرب استطاعوا أن يأخذوا فى معركتهم القومية مع العدو الإسرائيلى شيئاً من قداسة بلدة الإسراء والمعراج، ولا جذوة من جبل النار فى القدس، ولا رشفة ماء تروى الظمأ العربى من دجلة أو النيل، ولا الأحرار هبوا هبة صحيحة للفداء لتدفن اللصوص فى غياهب الردى، بل على العكس تماماً، تغيب أحرارنا فى أحشاء الثرى، وضاعت القدس بين أنياب العدا، وجاءت الهزيمة الساحقة الماحقة لتشد تلك الأحلام، وتصبح فى يونيو عام ١٩٦٧ أحلاماً ضائعة وفى خبر كان. هكذا سارت الأمور، وظل الشعور العربى مخدوعاً بالنصر المرتقب الذى لم يره أحد»[3].

وهنا أعود وأؤكد على أن هذه النكسة المدوية لم يكن يتوقعها إلا «ذوى البصيرة من النخبة، أما الشعب، فكان يثق من النصر، نظراً لشعبية «الزعيم» القائمة حتى الآن»[4]؛ «فقد خرست الأقلام الصحفية إلا من الإشادة به. فهو المخلص والمنقذ للوطن والعروبة»[5].

ولكن كانت تلوح فى الأفق لهؤلاء النخبة من المثقفين، بوادر كارثة قادمة لا محالة؛ فقد كانت الدولة المصرية وليدة مجلس عسكرى منقسم أعضاءه وكوادره فيما بينهم فى تحديد مراكز القوى وتقسيم مناطق السلطة والنفوذ؛ حتى ليبدو الأمر وكأنهم

(١) الدم وثنائية الدلالة- د/ مراد عبد الرحمن مبروك – ص٢٧ .

(٢) الدم وثنائية الدلالة- د/ مراد عبد الرحمن مبروك – ص٢٧ .

(٣) القدس فى الشعر العربى – إبراهيم حلمى – الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٨- ص١٤٧، ص١٤٨.

(٤) نبوءات الشعر- دراسة نقدية فى شعر محمد العزب- محمد دياب- سنة ٢٠٠٥- ص٥١.

(٥) الثورة والإحباط – د/ محمد الجوادى – الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٥- ض٢٢٥.

يتربصون ويكيدون لبعضهم البعض أكثر مما يحذرون ويحتاطون من العدو؛ لذلك جاءت الهزيمة ثقيلة والنكسة كبيرة أدمت القلوب وزلزلت النفوس وكان لها «وقعاً مدوياً على المصريين والعرب جميعاً جميعاً، وعلى الكتاب والفنانين بوجه خاص»[١]؛ فقد سرت «نغمة الحزن والغضب بين الشعراء العرب عموماً والشعراء المصريين على وجه الخصوص»[٢] ففى «مصر كان حجم الهزيمة فى يونية ١٩٦٧ كبيراً كان الجرح النازف فى داخل النفوس واسعاً وعميقاً»[٣].

وهكذا يمكن القول بأن هزيمة ١٩٦٧ قد شكلت «وجداناً جديداً شكلت رؤيا مختلفة ومواقف متغيرة بل صنعت الحياة بلون مختلف ومدت ظلالها الكئيبة على حياة الفرد والمجتمع»[٤].

لذلك لم يكن من المستغرب مطلقاً أن يحس «الشاعر المعاصر أن هذه الهزيمة قد عصفت بكيانه القومى أكثر مما عصفت به نكبة ١٩٤٨ ذاتها»[٥]. وهذا أمر مبرر تماماً فقد كشفت هذه النكسة عن «مساوئ نظام يوليو ١٩٥٢، وغياب الديمقراطية، وسيطرة مراكز القوى على مقدرات الشعب يضاف إلى ذلك، أن النكسة قد أحدثت شرخاً كبيراً فى وجدان الإنسان العربى»[٦]. فلم «تكن هزيمة ١٩٦٧ هزيمة شعب لكنها كانت هزيمة للأنظمة العربية ذات السلطة الفردية، وهزيمة للقيادة الفاسدة التى أسند إليها قيادة الجيش والمعركة، ففى الوقت الذى كانت فيه الحرب العربية الإسرائيلية على وشك الاندلاع، كان عبد الحكيم عامر غارقاً فى زواجه السرى بالسيدة «برلنتى عبد الحميد»[٧]، «وبرغم اعتراف جمال عبد الناصر بعد الهزيمة بفساد القادة ومحاولته

(١) لزوم ما يلزم – نجيب سرور – دار الشرق – الطبعة الأولى ٢٠٠٦، ص١٨ .

(٢) القدس فى الشعر العربى – إبراهيم حلمى – ١٤٩ .

(٣) السابق – ص١٥١ .

(٤) قيم فنية وجمالية فى شعر صلاح عبدالصبور – د/ مديحة عامر – ص٨١.

(٥) استدعاء الشخصيات التراثية فى الشعر العربى المعاصر – د. على عشرى زايد . دار غريب – ٢٠٠٦م – ص٤١.

(٦) الدم وثنائية الدلالة – د/ مراد عبد الرحمن مبروك – ص٢٦ .

(٧) السابق نفسه – ص٢٧ .

الإصلاح، إلا أن هذا لا ينفى المسئولية عنه»[1] وبذلك فقد مثل «هذا اليوم «٥ يونية «لحظة الانهيار الحقيقية للنظام الاشتراكى فى مصر بزعامة جمال عبدالناصر»[2].

وإذن فقد تعددت محاور الشعور بالإحباط تبعاً لتنوع وارتفاع نسبة المستويات الارتدادية العنيفة التى أحدثتها تلك الكارثة من شروخ وتصدعات تركت آثارها العميقة الغائرة على كافة وجوه الحياة فى مصر .

لذلك كان من الطبعى أن تتمكن مشاعر الإحباط من عدد كبير من الشعراء المصريين- إن لم نقل جميعهم - بصورة تامة وشاملة لم يستطيعوا أن يتخلصوا من براثنها المميتة التى أنشبت فى قلوبهم فنضحت بها قصائدهم مغلفة بغلائل البكاء والحسرة والإحباط .

وحين أرصد مشاعر الإحباط التى انتابت الشعراء المصريين آنذاك أشير إلى الشاعر (أمل دنقل) كعلامة بارزة، وصوت نقى ظهر بين الشعراء المصريين الذين عاصروا المأساة، واكتووا بنيران إحباطاتها؛ فقد كشفت قصائده - خاصة فى ديوانيه (البكاء بين يدى زرقاء اليمامة) و(تعليق على ما حدث) - أبرز الملامح للآثار المحبطة التى تعرض لها الشعب المصرى عند وقوع تلك النكسة الرهيبة. كما تعد قصيدة الشاعر «البكاء بين يدى زرقاء اليمامة»* التى تحمل اسم الديوان من أصدق القصائد فى التعبير عن هول تلك المأساة، وفداحة آثارها. «كما أن هذه القصيدة تكاد تعد أشهر قصيدة عربية كتبت عن هزيمة ١٩٦٧م»[3]. وهى «تدور حول نكسة مصر أو مصر النكسة فى حرب يونيو ١٩٦٧»[4]. وفى مطلع هذه القصيدة يقول الشاعر:

---

(١) السابق نفسه الصفحة نفسها .

(٢) أشكال التناص الشعرى - أحمد مجاهد - الهيئة المصرية العامة للكتاب -٢٠٠٦م ص٢٥٤ .

* (زرقاء اليمامة) من بنى جديس، من أهل اليمن، وهى مضرب المثل فى حدة النظر، قالوا إنها كانت تبصر من مسيرة ثلاثة أيام، وأنذرت قومها بجيش حسان بن تبع الحميرى الغازى لجديس، فلم يصدقوها، فاجتاحهم حسان، وتم سمل عينى زرقاء اليمامة حتى لا تعود ترى أو تتكهن بالغيب- انظر المدينة فى الشعر العربى المعاصر ص٢٠٧، وكتاب سفر أمل دنقل ص٤١.

(٣) أشكال التناص الشعرى - أحمد مجاهد - ص٣٦١ .

(٤) سفر أمل دنقل - تحرير عبلة الروينى - ص٤٠ .

أيتها العرافة المقدسة..

جئت إليك.. مثخناً بالطعنات والدماء

أزحف فى معاطف القتلى، وفوق الجثث المكدسة

منكسر السيف، مغبر الجبين والأعضاء

أسأل يا زرقاء ..

عن فمك الياقوت، عن نبوءة العذراء

عن ساعدى المقطوع.. وهو ما يزال ممسكاً بالراية المنكسة

عن صور الأطفال فى الخوذات.. ملقاة على الصحراء

عن جارى الذى يهم بارتشاف الماء

فيثقب الرصاص رأسه.. فى لحظة الملامسة!

عن الفم المحشو بالرمال والدماء!!»[١].

لا يوجد ما يوضح حجم المأساة، وفداحة آثارها أكثر من تلك الصورة التى ارتدى فيها الشاعر ثياب (المقاتل المصرى المهزوم) الذى تجرع مرارات الهزيمة قطرة قطرة، فتركت آثارها الدامية فى وعيه، وفرضت نفسها على مخيلته كذلك. وقد استخدم الشاعر تراكيب تعمل على إشاعة جو ضبابى قائم ملىء بالصور المأساوية المحبطة، مثل: (مثخناً بالطعنات والدماء) و(منكسر السيف، مغبر الجبين والأعضاء) (ساعدى المقطوع) و(الراية المنكسة) و(صور الأطفال فى الخوذات ملقاة على الصحراء) و(الجار الذى يهم بارتشاف الماء فيثقب الرصاص رأسه فى لحظة الملامسة) و(الفم المحشو بالرمال والدماء).

والشاعر فى تلك الصور يخلط الآلام والمعاناة الجسدية المحسوسة بالمعاناة النفسية الطاحنة التى تلاحق المهزوم، والتى تولدت لديه من إحساسه بالخزى والعار، وقد عبر الشاعر عنها بقوله: (مغبر الجبين والأعضاء).

كما يلاحظ أن الشاعر لم يضع علامات الاستفهام فى نهاية تساؤلاته المتواترة التى

(١) الأعمال الكاملة – أمل دنقل ص١٠٥ .

وجهها إلى (زرقاء اليمامة). ولكنه قام بوضع علامتى تعجب (!!) وكأننا بالشاعر يشير من خلال ذلك إلى حادث مأساوى خطير أذهل عقله، وقد بلغ من هول الحدث، وفداحة آثاره أن عجز الشاعر عن إيجاد أى إجابات يمكن أن تفسره، أو تبرر وقوعه. لذلك كانت علامات التعجب هى الأولى فى المقام من الاستفهام الذى لن ينتظر الشاعر عليه إجابة ترجى.

لكننا نعثر من الشاعر نفسه على بعض الأسباب التى أدت بطريقة مباشرة إلى وقوع حدث النكسة الرهيب. وعلى رأس تلك الأسباب عدم الإعداد الجيد للجنود المصريين؛ ويتضح ذلك من استخدام الشاعر لعبارة (الأطفال فى الخوذات)، وكان جديراً بحرب شرسة كهذه الحرب أن يخوضها الجندى المجرب ذو الكفاءة المؤهلة لخوضها ضد العدو الغاشم الذى لايرحم. والشاعر يشير إلى المعنى ذاته فى موضع آخر من القصيدة ذاتها، ولكن بعد أن يرتدى قناع (عنترة العبسى)؛ ليصور من خلاله موقف الشعب المصرى، وكيف أنه كان «يعيش حياة شظف ومذلة، ويتحمل أقسى المشقات، على حين ينعم السادة بكل الخيرات والنعم، حتى إذا ما هدد الخطر الوطن كان هو الذى يتحمل كل العبء وكل التبعة وكل التضحيات، بينما الذى يستمتعون بالخيرات يفرون من الميدان»[1].

وفى إطار يقدم الشاعر – فى صورة ضمنية –«تصوره لأسباب النكسة»[2]:

«أيتها النبية المقدسة..

لا تسكتى.. فقد سكت سنة فسنة

لكى أنال فضلة الأمان

قيل لى «اخرس..»

فخرست.. وعميت.. وائتممت بالخصيان!

ظللت فى عبيد (عبس) أحرس القطعان

أجتز صوفها..

(١) استدعاء الشخصيات التراثية – د/ على عشرى زايد – ص٦٩.

(٢) سفر أمل دنقل – عبلة الروينى – ص٤١ .

أرد نوقها..

أنام فى حظائر النسيان

طعامى: الكسرة: والماء.. وبعض التمرات اليابسة

وها أنا فى ساعة الطعان

ساعة أن تخاذل الكماة.. والرماة.. والفرسان

دعيت للميدان!

أنا الذى ما ذقت لحم الضأن

أنا الذى لا حول لا لى أو شأن

أنا الذى أقصيت عن مجالس الفتيان،

أدعى إلى الموت.. ولم أدع إلى المجالسة!!»[1].

هنا يجب التأكيد على أن هذا الشاعر وهو يؤصل للأسباب والعوامل التى أدت إلى حدوث النكسة لم يستند إلى رؤية واقعية معاينة للحدث، بل إن تحذيراته مما يكتنف الحياة السياسية من تحلل وتضليل يؤذن بوقوع حوادث كارثية خطيرة فى مصر – ترجع إلى زمن ما قبل حدوث نكسة ٦٧ بسنوات بعيدة:

«قلت لكم فى السنة البعيدة

عن خطر الجندى

عن قلبه الأعمى، وعن همته القعيدة

يحرس من يمنحه راتبه الشهرى

وزيه الرسمى

ليرهب الخصوم بالجعجعة الجوفاء

والقعقعة الشديدة

لكنه.. إن يحن الموت

فداء الوطن المقهور والعقيدة:

(١) الأعمال الكاملة – أمل دنقل – ص١٠٧، ١٠٨ .

فر من الميدان»[1].

هكذا يكون الفرار من أرض المعركة هو الخيار الأمثل لهؤلاء القواد المهزومين. ويلاحظ أن «الجعجعة الجوفاء»، و«القعقعة الشديدة» لا يوجهها قواد الوطن إلى الأعداء، بل يوجهها بعضهم لبعض؛ لما بينهم من التنافس على المنصب أو الرتبة. وقد اتضح ذلك من استخدام الشاعر: «ليرهب الخصوم» وليس «ليرهب الأعداء». وهكذا يكون هؤلاء القادة العسكريون قد فقدوا أدنى درجات الكفاءة التى تمكنهم من الذود عن الوطن، والدفاع عنه؛ وعلى ذلك فإن هزيمة ٦٧ يتحملها الحكام الذين أغرقوا المجتمع فى مستنقعات التضليل، كما أخرسوا كل الأصوات، ولم يهتموا إلا بأنفسهم، ولم يعدو الجيش، ولم يؤهلوه لملاقاة العدو، وراحوا يتبارون فى تجويع الشعب، وتهميشه وقهره بشتى الوسائل والصور. ومن ثم وجدنا إلحاح الشاعر على فضح هذا الواقع المهترئ المتحلل، وعدم السكوت عنه:

«تكلمى أيتها النبية المقدسة

تكلمى.. تكلمى..

فها أنا على التراب سائل دمى

وهو ظمى.. يطلب المزيدا

أسائل الصمت أن يخنقنى»[2].

فى «هذا الحوار يخاطب الشاعر (الجندى المهزوم) زرقاء اليمامة بهمومه وهمومها هى أيضاً لأنها هى التى حملت همومه منذ قديم الزمن. فهو لا ينفى همومها التاريخية (فمها الياقوت، نبوءتها)، بل يجعلها بهذه الهموم تساهم فى هموم عصرنا»[3].

ولكن هذا الشاعر «لايلبث أن يكتشف أن مأساة الزرقاء ليست أقل فداحة من مأساته، لئن كان قد ناله ما ناله بسبب صمته، فإن الزرقاء قد تكلمت فماذا كانت النتيجة؟ لم يصغ أحد إلى كلامها، إن الذين أذلوه وامتهنوه وفرضوا عليه الصمت قد سخروا من كلامها،

(١) المصدر السابق – ص٢١٤ .

(٢) المصدر السابق – ص١٠٨ .

(٣) سفر أمل دنقل – عبلة الروينى – ص٣٠٧ .

بل نكلوا بها، ومن ثم فلا جدوى من الكلام»[1]:

«أيتها العرافة المقدسة...
ماذا تفيد الكلمات البائسة؟
قلت لهم ما قلت عن قوافل الغبار..
فاتهموا عينيك، يا زرقاء، بالبوار!
قلت لهم ما قلت عن مسيرة الأشجار..
فاستضحكوا من وهمك الثرثار!
وحين فوجئوا بحد السيف: قايضوا بنا
والتمسوا النجاة والفرار!
ونحن جرحى القلب،
جرحى الروح والفم.
لم يبق إلا الموت..
والحطام...
والدمار...[2]

«هنا تكمن المأساة الحقيقية لجيل عاصر تلك الأحداث المهينة»[3] وكان من أفراد هذا الجيل الشاهد (الجندى المهزوم) الذى «لم يقصر فى أداء واجبه، ولا فى الذود عن الراية المهزومة حتى سقط ساعده معها فإن شعوراً ثقيلاً بالعار والمهانة يبهظ كيانه»[4]، «ويلاحقه أنى اتجه»[5]. فلا «يستطيع أن يتخلص منه أو يخفيه، فلا الليل يستر هذا العار ولا الجدران، ولا محاولاته اليائسة- التى جسدها فى صور مادية - لإخفائه عن أعين الآخرين»[6].

(١) استدعاء الشخصيات التراثية فى الشعر العربى المعاصر - د/ على عشرى زايد - ص٢٣١.
(٢) الأعمال الكاملة - أمل دنقل - ص١٠٩.
(٣) سفر أمل دنقل - عبلة الروينى - ص١٧٨.
(٤) استدعاء الشخصيات التراثية فى الشعر العربى المعاصر - د/ على عشرى زايد - ص٢٢٨.
(٥) المرجع السابق نفسه - ص٢٢٩.
(٦) عن بناء القصيدة العربية الحديثة - د/ على عشرى زايد - ط٥، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م- مكتبة الآداب- ص٢١١.

يقول الشاعر:

«أسأل يا زرقاء..

عن وقفتى العزلاء بين السيف.. والجدار!

عن صرحة المرأة بين السبى.. والفرار؟

كيف حملت العار...

ثم مشيت؟ دون أن أقتل نفسى؟! دون أن أنهار؟!

ودون أن يسقط لحمى.. من غبار التربة المدنسة؟!

تكلمى أيتها النبية المقدسه[1].

-«تكلمى.. لشد ما أنا مهان

لا الليل يخفى عورتى.. ولا الجدران!

ولا اختبائى فى الصحيفة التى أشدها..

ولا احتمائى فى سحائب الدخان!»[2].

هكذا كانت نكسة ٦٧ هزيمة مرة، و نكساراً كبيراً. وقد عزا الشاعر حدوثها إلى تضليل الحكام، وصمت الناس، وامتثالهم إلى سحر هذا التضليل، وعدم إفاقتهم منه .

هنا يبدو أن هذا الشاعر يحمل جانباً من المسئولية للشعب المصرى؛ خاصة عندما خرج هذا الشعب المصرى هاتفاً بصانع الهزيمة، ورفضت جموع هذا الشعب فكرة تنحيه عن السلطة؛ مطالبين بضرورة عودته إلى سدة الحكم. لذلك وجدنا الشاعر يقدم هذا التساؤل المعبر عن شحنات هائلة من الشعور بالإحباط:

«ناديت: يا نيل هل تجرى المياه دماً

لكى تفيض، ويصحو الأهل إن نودوا؟»[3].

إن الشاعر يلجأ إلى التساؤل حين يضع علامة الاستفهام مع نهاية الفقرة. لكن هذا التساؤل لا

(١) الأعمال الكاملة – أمل دنقل- ص١٠٥، ١٠٦ .

(٢) السابق ص١٠٦ .

(٣) الأعمال الكاملة – أمل دنقل – ص١٩١.

ينتظر الشاعر من ورائه إجابة ترجى؛ لأنه فى حقيقة الأمر ليس تساؤلاً بل هو نوع من الرفض للواقع الذى لم يستوعب بعد فداحة الآثار التى ترتبت على تلك النكسة الكبيرة. وكأن الناس قد استناموا إلى سحر أصوات الزيف والتضليل التى اعتادوا عليها وملأت عليهم أسماعهم وأبصارهم قبل حدوث النكسة، وكأنهم فى تلك الحالة يرفضون تصديق ما حدث.

وهنا يتساءل الشاعر متحسراً: ما الذى يتطلبه الأمر حتى يستفيق هؤلاء الناس من ذهولهم وغفلتهم، ويهبوا للإصلاح واستعادة ما تسبب هؤلاء الحكام فى ضياعه؟ ألا يتحقق ذلك إلا عندما تفيض مياه النيل، وتتحول إلى دماء؟!

وهكذا فحدوث نكسة ٦٧ يعود إلى مجموعة من العوامل والأسباب يتحمل الحكام والقواد الكفل الأكبر منها. بينما يظل للجماهير المصرية دورها المؤكد فى التحضير لوقوع تلك النكسة. وقد تمثل هذا الدور فى سلبيتهم وتنصلهم من تحمل مسئولياتهم فى حمل هؤلاء الحكام على تغيير وجهاتهم السياسية التى اكتست بطوابع المطامع الشخصية. ولذلك فإن نصيب هذه الجماهير من تلك السلبية سيكون بعد النكسة – تماماً كما كان قبله – نصيباً كاملاً غير منقوص؛ فعلى الرغم من الآثار الرهيبة، والضريبة الفادحة التى تقدمها الأمة المهزومة:

«تقفز الأسواق يومين..	وتعتاد على «النقد الجديد»
تشتكى الأضلاع يومين	وتعتاد على السوط الجديد
يسكت المذياع يومين	ويعتاد على الصوت الجديد»[1]

«لقد انتزع الشاعر الرموز الثلاثة: النقد، السوط، الصوت من دلالتها المعجمية، ووحد بينها- رغم تباينها فى الوقائع اليومية، وأصبحت ثلاثتها تعنى نظم الحكم الجديدة، ولا يهمنا أن نشير إلى أن النقد سلطة الحاكم الاقتصادية، وأن السوط عصاه العسكرية المهددة، وأن الصوت إعلام الحاكم، بقدر ما يهمنا إبراز ما عناه الشاعر بقوة من السلبية واللامبالاة التى تقابل بها الشعوب نظم القهر والاستبداد المتتالية عليها، وتعد هذه الشعوب نفسها للتكيف مع القهر الجديد»[2]. ولعل هذه السلبية، وتلك

(١) السابق نفسه – ص١٩٨.

(٢) المدينة فى الشعر العربى المعاصر – د/ مختار على أبو غالى – ص٢١٣.

اللامبالاة قد مثلتا معاً الخلفية القوية التى دفعت مصر إلى منحدرات تلك النكسة الكبيرة. هكذا إذن تكون نكسة ٦٧ - بكل أبعادها وتداعياتها الخطيرة - قد كشفت أمام الشاعر (أمل دنقل) روافد متعددة راحت تغذى بداخله شعوره المضنى بالإحباط بعد أن أمدت هذا الشعور بأسباب التجدد والحياة والتمكن من نفسه إلى الحد الذى أورثه أحاسيس التشاؤم واليأس والسقوط والانكسار و«الشعور الدائم بالحصار والمطاردة»[١]:

«أيها السادة، لم يبق اختيار

سقط المهر من الإعياء،

وانحلت سيور العربة

ضاقت الدائرة السوداء حول الرقبة

صدرنا يلمسه السيف،

وفى الظهر: الجدار!»

- «ليس ما نخسره الآن.

سوى الرحلة من مقهى إلى مقهى

ومن عار.. لعار!!»[٢].

إن عبارة (ليس ما نخسره الآن) تحمل دعوة مبطنة جاءت فى صورة يائسة تدعو إلى ضرورة التكلم، ونبذ الصمت؛ لفضح هذا الواقع الذى تسبب فى حدوث تلك النكسة، ومحاولة تغييره «فلم يعد لدى الناس ما يخسرونه سوى عارهم وضياعهم»[٣]. وليقين الشاعر من أن دعوته اليائسة تلك لن تجدى نفعاً فى هذا الواقع المتحلل بعد أن حلت الكارثة، والناس على حالهم من السلبية والجمود - كان من الطبعى أن يصل الشاعر إلى قمة شعوره بالإحباط واليأس والانهيار يقول:

«رؤوسنا تسقط .. لا يسندها..

(١) صورة الدم فى شعر أمل دنقل - د/ منير فوزى - ص٢٨٧ .

(٢) الأعمال الكاملة - أمل دنقل - ص٢٦١.

(٣) استدعاء الشخصيات التراثية فى الشعر العربى المعاصر د/ على عشرى زايد - ص٢٢٣.

إلا حواف الياقة المنتصبة!

فارحم عذابى أيها الألم

واسند حطامى المنهار»[1].

كذلك يستخدم الشاعر (صلاح عبدالصبور) (ياء المتكلم) فى عكس واقع صدمة الهزيمة على شخصه. ولعله يحمل نفسه من ناحية أخرى جزءً من تبعات الهزيمة كصاحب فكر وثقافة لم يستطع أن يستعملها لتفادى تلك النكبة.

لذلك فهو يعكس هول النكبة بأسلوب بالغ فى السخرية، حيث يتقدم بحديثه إلى أصحاب السلطة، وصانعى القرار بقوله:

«حدثتمونى عن سنابك مجنحه

تفتق الشرار فى أهلة المآذن

عن عصبة من السيوف، لا تفل

قد أغمدت فى الصخر، لا تسل

إلا إذا قرأتم دونها أسماءكم

يا عصبة الأمجاد، الأشاوس، الأحامد، الأحاسن»[2].

«تبدأ القصيدة بداية هادئة، وكأنها حديث الود بين الأصدقاء (حدثتمونى) حتى إذا ما بدأ السياق بدأنا نتكشف مرارة الحديث أنه كشف الخداع وإزالة الهالات والأوهام التى صورها هؤلاء الفرسان وعاشوا بها وفيها وأوهموا بها الشعب الطيب العريق وأذاعوها وصدقوها وملأت عقولهم وحسهم وضخمت كل شىء فى حياتهم حتى إذا ما حدثت الهزيمة فقد تكشفت كل الأشياء»[3].

لقد بدا الشاعر وكأنه خدع مكرهاً؛ لأنه لم يجد البديل (الحقيقة) أمام كل هذا التضليل، وكل تلك الشعارات المزيفة الجوفاء.

(١) الأعمال الكاملة – أمل دنقل – ص١٥٦ .

(٢) ديوان صلاح عبدالصبور ص٢٧٧.

(٣) قيم فنية وجمالية فى شعر صلاح عبدالصبور– د. مديحة عامر ص٦٢.

إن تلك السيوف وسنابك الخيل كانت فى حربه يستعملها العربى الجاهلى أو الإنسان القديم عموماً. والشاعر بذلك يبالغ فى سخريته من قدرة سادته الفرسان على القتال، وإمكانياتهم الحربية؛ حيث يستخدمون الشعارات المزيفة أكثر من استخدامهم الأسلحة المتطورة التى تسلح بها أعداؤهم.

إن تلك العنجهية الصاخبة كان إفرازاً طبعياً لها تلك الأمنية الواثقة القادمة فى ثقة واقتدار:

«وقلتم:

(يا أيها المغنى غننا

مسمل العينين فى حضرتنا

لحناً يثير زهونا

ويذكر انتصارنا

(إذا تحين ساعة موعودة، تغيم فى أشراطها

لم تنخلع عن غيمها إلا لنا

الساعة التى تصير فيها خوذة الشيطان

كاساً لخمر سيد الفرسان) »[1].

إن الشاعر يرتدى قناع شخصية (المغنى) كأداة من أدوات السادة الفرسان فى التزييف والتضليل.

حيث بدا هذا المغنى «مسمل العينين»، وهو ما يعكس الجهل الذاتى للمغنى من ناحية، ودوره المؤثر فى التضليل من ناحية أخرى.

ويبدو- على ما أرى- أن انتشار الأغانى الوطنية التى تتحدث عن إنجازات الثورة مع ما يكتنفها من أمنيات ووعود للشعب الساذج، والوعيد والانتقام من العدو المتغطرس، واستخدام تلك الأغنيات، وأعلامها الأفذاذ كأداة من أدوات تزييف الواقع، وتضليل العامة عبر وسائل الإعلام المختلفة، والتى انتشرت وذاعت فى تلك

(١) ديوان صلاح عبد الصبور ص٢٧٧، ٢٧٨.

الفترة. يبدو أن كل ذلك كان وراء اختيار الشاعر لتلك الشخصية يرتدى قناعها، ويفضى بذات صدره، ويقص من خلالها حكايته مع سادته الفرسان:

«وموقفى يا سادتى فى آخر الممر
أربعة نحن من الصحاب
مهرج البلاط، والمؤرخ الرسمى، والعراف، والمغنى
وكلنا بدون أسماء ولا سيوف
وكلنا مؤجر بالقطعه
ونستعير ثوبنا المذهب الأطراف
من خزنة السلطان
وبيننا صداقة عميقة، كالفجوه»[1].

إن استيحاء التراث، وتمرينه واستنطاقه بما يريد الشاعر يتردد صداه فى تلك القصيدة بصورة لافتة لنظر الدارس. وربما كان يستخدم هذا الأسلوب كلون من السخرية المغلفة بهذا الرمز الموحى كنوع من إسقاط الماضى على الحاضر فى محاولة لإفضاء ما بذات نفسه من ألم ومرارة من قسوة الواقع الذى يتحكم فيه متغطرسون لا يسمعون فقط إلا «للمهرج» و«المؤرخ» و«العراف» و«المغنى الشاعر مسمل العينين»، والذى يغنى فيذكرهم بذهوهم وانتصاراتهم. و«هكذا يحيا الشاعر فى هذا البلاط واحداً من الملتحقين بخدمة صاحبه، ويؤجر فنه فى تبرير تصرفات السلطان، وفى الدعوة له وفى التسرية عنه بالغناء لكنه فى الأعماق، يود لو يثور على نفسه وموقفه ذلك لأنه يعلم أن السلطان الذى يطلب منه أن يغنى بطولته، وفروسيته، عار من الشجاعة وأعجز عن الخوض فى غمار القتال الباهظ»[2].

«إن المغنى يعرف أن شعره بديل للحرب المفتقدة، التى تنتزع الحق الضائع من براثن (عصبة الشيطان) ولذلك يتجلى التناقض بين المغنى والبلاط، سلطانه وبطانته، فى تناقض آخر داخلى يجعل شخصين، شخصاً هو جزء من بنية السلطة الفاسدة، يكيف

(١) ديوان صلاح عبدالصبور - ص٢٨٤.
(٢) الجحيم الأرضى - تأليف/ محمد بدوى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٦م ص١٦٢.

نفسه فى آخر الممر مع العراف والمهرج والمؤرخ الرسمى، وشخصاً يلجأ إلى ذاته ليعاقر حزنه وتذكاراته، وليتحسس الجثث التى تمثل مراحل عمره المختلفة، لذلك يلجأ إلى السخرية من هؤلاء الفرسان العجزة»[1]:

«وصنعتنى يا سادتى مغنى

معانق قيثارتى،

فؤادى المطعون بالسهام الخمسة

صندوق سرى،

خزنة المتاع، روضتى وقبرى

أزرع فيها جثثى، خلعتها فى زمنى المفقود

أدفنها فى صدرها المفئود

أزورها فى خلوة الوجد، إذا داهمنى المساء

بدون أن أعد له

زاداً من الحشيش والنساء

أكشف عنها الكفنا

أقيمها، أنيمها ممدودة، أطرد عنها الوسنا

أنظر فى عيونها الهاسية البكماء

ثم أولى هارباً للكأس والبكاء»[2].

ويبدو أن الشاعر لن يدع شخصية «المغنى» أن تمر دون أن يرسم جميع ملامح تلك الشخصية النفسية والظاهرية.

فإذا كان الشاعر أو المغنى مجبراً على أن يذكر أمجاد سادته الفرسان، وهو (مسمل العينين) فلا شك أن الشاعر يقصد بالسهام الخمسة (الحواس الخمسة) بمعنى أن الهزيمة الثقيلة قد ألقت بسهامها القاتلة عن طريق حواس الشاعر إلى أن استقرت فى فؤاده فكان

---

(١) المرجع السابق- ص١٦٢، ١٦٣.

(٢) ديوان صلاح عبدالصبور- ص٢٧٩، ٢٨٠.

الندم، وكانت الحسرة؛ حيث لم تدرك حواسه الخمسة غير طعم مرارة الهزيمة.

«إن شعور عبدالصبور بما يجرى فى وطنه يظل عميقاً وحاراً إنه يصرخ مرة بعد مرة آه يا وطنى، وكارثة ٦٧ تصاحبه فى حله، وترحاله»[1].

ولا شك أن الباحث يستطيع أن يثبت أن ديوان «تأملات فى زمن جريح». وديوان «شجر الليل» للشاعر صلاح عبدالصبور يمثلان بكل الصدق والوضوح الحالة المزاجية والنفسية الشاهدة على معطيات واقع هذه الهزيمة المريرة، وما أعقبها من تبعات مأساوية محبطة نجد صداها عند الشاعر ومعاصريه، حيث بدا جلياً أن مفردات اليأس والتشاؤم قد تعالت صيحاتها، وأعلنت تمردها على الحياة بل على الكون بأسره. يتمثل ذلك فى خلق جو تشاؤمى سأمى قصد إليه الشاعر فى قصيدته «انتظار الليل والنهار»؛ حيث يقول:

«وهكذا مات النهار

ومال جنب الشمس، واستدار

ثم تساقط المساء فوقنا،

مثل جدار خرب، وانهار

واعتنقت صحيفة السماء والغبراء،

لطختنا الجبين بالغبار

وانطفأت نوافذ المرضى، وأنوار الجسور

أعين الحراس والمآذن

تكومت حوائط الظلمة فى مداخل البيوت والمخازن

فانكفأت كثيبة مرصوصة، كأنها مدافن

منهارة على بقايا جبل منهار»[2].

إن الشاعر يصور الحياة فى «مصر» بعد الهزيمة بأنها صارت ظلاماً مطبقاً ألقى

(١) أزمة الشعر المعاصر-/ شكرى محمد عياد- الطبعة الأولى سنة ١٩٩٩م- ص٨٣، ٨٤.

(٢) ديوان صلاح عبدالصبور ص٣٠٢، ٣٠٣.

بشملته السوداء على ملامح الحياة فطمس معالمها.

لقد مات النهار، وعم الليل- بما يحمله من دلالات مشعة على الجدب والظلمة- أرجاء البلاد.

ولنتأمل تلك الصورة الشعرية التى رسمها الشاعر، ونسجتها أصابع مخيلته بعد أن اشعل حركتها هذا الكم من الأحزان واتى تتمثل فى:

- موت النهار كناية عن انتهاء نور الأمل.
- تساقط المساء كناية عن بداية عصر من التخبط والظلمة.
- اعتنقت صحيفة السماء والغبراء كناية عن هول تلك الفجيعة.
- انطفأت نوافذ المرضى، وأنوار الجسور، وأعين الحراس، والمآذن كناية عن اليأس ونهاية الحياة.
- لطختا الجبين بالغبار كناية عن الذل والعار.

وإذا كان الشاعر قد أشار إلى ضياع الأمل بموت النهار إلا إنه يعود إليه فيوجه خطابه إلى «نور الضحى» الذى يحمل فى طياته أول بوادر الأمل الكاذب ثم سرعان ما يحل بعده اليأس المجهض فتكون المرارة، ويكون الحزن.

لذلك فهو يتوجه إليه بتلك اللهجة الصارمة:

«أواه يا نور الضحى،
ملأت قلبى فزعاً وترحا
لأننى رأيت فوق ما أردت أن أرى
بوركت وقدة الظهيرة
النور يجلد العيون، تعشى، لا ترى
من البيوت والبشر
سوى مكعبات لون وحجر»[1].

إن الشاعر يبارك «وقدة الظهيرة» لأنها تمنعه من رؤية الأشياء على حقيقتها؛ حيث

(١) السابق ص٣٠٤.

تعشى العيون؛ فلا يكاد يميز شيئاً عن شيء. بل الكل يبدو مكعبات متشابهة. وفى ذلك راحة للشاعر أو هروب له من قسوة رؤية الواقع على دمامته ووحشته.

بكل هذا السأم، وكل ذلك الحزن عاش الشاعر تلك الفترة العصيبة التى عاناها الوطن. وقد خلعت عليه حالة اللا سلم واللا حرب ثيابها السأمية القاتلة:

«وهكذا تمضى الحياة بى،

أعيش فى انتظار

هل ...

لحظة مشرقة فى ظلمات الليل

أو .... لحظة هادئة فى غمرة النهار»[1].

ولعل قول الشاعر ذلك يصور حالة اللا سلم واللا حرب، والتى سادت بعد الهزيمة، وما كان لها من أثر طاحن باليأس يعصف بنفوس المصريين آنذاك.

لقد افتقد الشاعر السلام مع ذاته، وواقعه النفسى، والذى وصفه بأنه يضج بالصخب والضجيج فى غمرة النهار، وتكتنفه ظلمة وعتمه فى ظلمات الليل بما يتخللها من وساوس، وهواجس مما أكسبه إحساساً بفقدان الثقة بالنفس نتيجة لتغلغل الإحساس بالخزى والعار بداخله باعتبارهما وريثاً شرعياً لهزيمة ١٩٦٧م. وهو ما عبر عنه الشاعر مباشرة حين أعلن أنه يود أن يجلس إلى أصدقائه الشعراء (أوبرستاد) من «أوسلو بالنرويج»، و(وأيفتوشنكو) من موسكو»، وصديقه (براهنى) من «إيران»، وغيرهم من شتى البلدان ينادمهم ويتسامر معهم بعد أن يضفى الحب والفن وأنوار الطبيعة سحرها الحانى على وتر حديثهم. ولكن كل ما يخشاه الشاعر إذا ما راح يناظر أحد أصدقائه الشعراء، ويقارعه الحجة بالحجة أن يعيره بذلك اليوم الملعون يوم هزيمة ١٩٦٧م وعندئذ سيشعر الشاعر أنه قد وقع فى لجة لا يستطيع منها فكاكاً فيكون إحساسه المضنى بالخزى وعار الهزيمة. يقول الشاعر:

«أبغى أن أجلس جنب صحابى الشعراء

---

(١) السابق ص٣٠٥.

من شتى البلدان

وأنا لست بخجلان»

«أبغى أيضاً أن تصبح عينى أكثر جرأه

ألا أشعر أنى أوشك أن أهوى فى لجه

حين أقارع أحدهم الحجة بالحجه

أخشى أن يطلق فى وجهى فجأة

تاريخ اليوم الملعون

أبغى أيضاً ألا أصبح كالمسجون

ألا أصبح مضطراً

حتى لا تفجأنى السكين

أن تصبح كلماتى

عما قبل العام السابع والستين»[1].

إن الشاعر يتمنى يائساً أن يعود الزمن للوراء لأنه لا يستطيع تحمل وطأة ذلك اليوم المشئوم الذى أدمى قلبه مع غيره من أبناء مصر والوطن العربى، وخلف إحساس الذل والمهانة فى كل بيت. مما جعله يلقى باللائمة كاملة على الطبقة الحاكمة أو السادة الفرسان بعد أن أسماهم بالسادة القوالين. وهو نعت يبين ويؤكد ما سبق وقررته من أن الدعاية والتصريحات الطنانة، والادعاءات النارية الزائفة كانت جميعها وراء صدمة الشعب، واصطدامه بآثار الهزيمة.

هؤلاء السادة الذين لا يملك الواحد منهم إلا أن يستمنى فى نومه الفاسد بعد أن تخيل لهم الخمر السيئة المبذولة التى يتعاطونها فتدور برؤوسهم وتخيل لهم أنهم يلعبون بسيوفهم الوهمية فى أعناق أعدائهم المهزومين الموهومين:

«أترك لكم ياسادتى القوالين

(١) انظر: الأعمال الكاملة- صلاح عبدالصبور- حياتى فى الشعر- الدواوين الشعرية من ديوان «شجر الليل» ص٤٧٥- ٤٧٧.

أن تستمنوا فى نومكم الأسن

حين تدور برأسكم الخمر، السيئة المبذوله

باللعب بأسيافكم المفلوله

حين تعمدها أحلام الصحو المموله

(منا.. لا منكم)

فى أعناق الفرسان الموهومين المهزومين»[١].

ولكن أين يكون المفر؟ وبماذا يكون الخلاص من هذا الواقع المؤلم؟ ولأن الشاعر صلاح عبدالصبور شاعر مثقف واسع الدراية متفتح المدارك متفلسف يدرك كنه الأمور، ولا تخدعه ظاهرها عن حقيقتها.

فإن ذلك من شأنه أن يدفعه إلى التفكير فى كل ما حدث ويحدث، فيلقى به تساؤلاً إلى تساؤل لينتهى إلى حقيقة واحدة. وهى أنه يعيش مع غيره من أبناء وطنه فترة عصيبة تعتصر وجدان كل من يعيش فيها على أرض الوطن. ولكنه ليس بيده من الأمر من شىء، لذلك فهو يتساءل:

«ماذا قد يحدث؟

ماذا قد يحدث»؟[٢].

والشاعر يعكس ذلك الخوف الداكن الكامن بداخله من خلال تكراره للتساؤل، ثم تكون سخريته اللاذعة المبطنة بنفى هذا التساؤل:

لكنى..

إحقاقاً للحق

لا أسأل أبداً، لا أسأل

ماذا قد نفعل؟»[٣].

وكأنى بالشاعر يعى ما كان عليه القادة من زيف وتخاذل يعجزهم عن أى رد فعل

(١) السابق ص٤٧٤، ٤٧٥.

(٢) السابق ص٤٧٩.

(٣) السابق الصفحة نفسها.

مواز لما قد يحدث.

لقد كان الشاعر إذن يرى الحقيقة كما هى على أرض الواقع، حيث تفتقد العدالة والحرية والصدق. فكانت الهزيمة أمراً طبيعياً للاختلال الواضح فى أنظمة السلطة، ومتخذى القرار.

والشاعر لا يكف عن إعلان سخطه وضيقه من هؤلاء السادة الحكام أو السادة الفرسان. وهو يحملهم دائماً المسئولية الكاملة عن الأسباب التى أدت إلى تلك الهزيمة المرة، وأنهم السبب المباشر فى تحميل الوطن وأبناء الشعب تبعات تلك النكسة الفادحة. وهنا نسمع صوت مجموعة رجال:

«أنذرنا من قبل أن يجىء
تراب لونه الردىء
أنذرنا من قبل أن تدهمنا خيوله المفاجئه
بطبله الخافت فى إيقاعه الرتيب
أنذرنا من قبل أن ينشر ريح الوحشة الوبىء
بموت قطعان السحاب،
وانحدارها فى كهفه الخبىء
وهدأة الصمت البليد،
والنجوم ثابتات
كأنها طحالب ميته ملقاة
على امتداد بحر الظلمة الكابية الملىء
أنذرنا من قبل أن يجىء
بأن يوماً مجدباً تقدمه
وظل يلتف على أرواحنا
حتى تهتكت خيوط نوره الصدىء»[1].

(١) الأعمال الكاملة- صلاح عبدالصبور- حياتى فى الشعر- الدواوين الشعرية من ديوان «شجر الليل»- ص٤٩١، ٤٩٢.

إن الشاعر- وعلى الرغم من مفاجأة الصدمة، وهولها- يقرر أن لذلك اليوم يوم الهزيمة أسبابه ومقدماته، والتى كانت تنذر بوقوع تلك الكارثة، حيث كان من أماراته:

«تراب لونه الردىء»، «الطبل الخافت فى إيقاعه البطىء»، «موت قطعان السحاب»، «وانحدارها فى كهفه الخبىء»، «هدأة الصمت وبلادته»، «ثبات النجوم».

وقد «بلغ الإنذار قمة وضوحه حين تقدمه، يوم مجدب وبالرغم من هذا لم يستطع أحد رؤيته وظل الناس غافلين حتى باغتهم بخيوله المفاجئة.

ومن هنا كانت لهجة الرجال يتخللها الندم وتعذيب الذات وقد لجأ النص إلى الاستفادة من التكرار، فتكرار (أنذرنا من قبل أن يجىء، أنذرنا من قبل أن تدهمنا، أنذرنا من قبل أن ينشر...) قد خلق شعوراً حاداً بالندم»[1].

وإذا كان الشاعر فى تلك المقطوعة السابقة يتحدث بصوت مجموعة رجال فهو فى المقطوعة التالية يتحدث عن أثر الهزيمة على النساء؛ فقد كان الحزن يعتصرهن، كما أن ليلهن هو الآخر قد تحول إلى تربة مرة تنبت الأشجار الحزينة الكئيبة. وكيف أن تلك الأشجار كانت تلقى ثمار الوجد والحزن، وأزهار الكآبة فى مآقيهن وفى أكمامهن. يقول الشاعر:

«صوت مجموعة نساء:

شجر الليل على مفرقنا مال، وأرخى

شعره المحلول فى أكتافنا

ثم ألقى ثمر الوجد، وأزهار الكآبة

فى مآقينا وفى أكمامنا

واعتنقنا، وغصون الشجر الموحش

حتى دب فى أعطافنا

شبق الحزن الذى كل دجى يعتادنا

فاضطجعنا،

---

(١) الجحيم الأرضى- تأليف/ محمد بدوى- ص٢٠٢.

ووهبناه، وذبنا فيه، حتى لفنا، واشتفنا

ثم .. ألقانا هنا

جائعات نشتهى، كل مساء، موحش، شجر الليل

لكى يعصرنا

يلقى بذور الألم الموجع فى أحشائنا»[1].

«ومن الجلى أن المقطع استعارة موسعة، فشجر الليل كاستعارة دلالة على السواد والحزن، لكن هذه الاستعارة أى شجر الليل، تدخل فى علاقة استعارية مع النساء اللائى يتحدثن، فيصبح شجر الليل كائناً، شعره المحلول يرخى فى أكتاف النسوة اللائى يدب فى أعطافهن شبق الحزن، فيضجعن له ويهبنه أجسادهن حتى يشتفهن، لكنه يلقى بهن جائعات، قد امتلكهن الشبق وإدمان الحزن والألم»[2].

إنه الغزو والاحتلال احتلال الأرض هو ما فرض على الشاعر الحزين ملامح ومفردات تلك الصورة الشعرية؛ حيث اتخذ من تكون الجنين من الخطيئة- وما يسبقه من رغبة وشهوة- رمزاً غنى الدلالات الإيحائية.

حيث كان الإغراء ثم يكون العناق ثم تدب الشهوة وبعدها يكون الندم والألم والحسرة.

ولا شك أن صلاح عبدالصبور كان نافذ البصيرة الشعرية فى تشكيله واختياره لذلك الرمز. وذلك لعدة أمور:

أولاً: دلالته على الغزو والتمكن.

ثانياً: كما أن الجنين يتدرج فى النمو بداخل أحشاء النساء بالتغذى على دمائهن. فكذلك كان الحزن ينمو ويستفحل بداخل أحشائهن.

ثالثاً: أنه لا مفر ولا خلاص من حمل هذا العبء الفادح الثقيل بين حنايا نفوسهن.

رابعاً: الإحساس المضنى بفداحة الذنب، وعظم الخطيئة.

(١) الأعمال الكاملة- صلاح عبدالصبور- حياتى فى الشعر- الدواوين الشعرية ص٤٩٢، ٤٩٣.

(٢) الجحيم الأرضى- تأليف/ محمد بدوى- ص٢٠٣.

وإذا ما تحدث الشاعر بلسان نفسه فإنه يبدو شريداً متردداً حائراً بين السأم والإحباط، وبين الرجاء والأمل في:

«أن تفتح السماء

أبوابها عن نبأ عظيم

كل صباح،

قبل أن يطالع الحياة والأحياء

مسهد الجفون، مقروح الفؤاد

سأمان مما حملت صحف الصباح من أنباء

يسأل هذا الشاعر السقيم

سؤاله السقيم

رباه!

رباه!

ما سر هذه التعاسة العظيمه؟

ما سر هذا الفزع العظيم؟»[1].

ولكن هذا التساؤل للشاعر قد كفانا مؤنة البحث عن جواب شاف له؛ حيث يجيب عليه جواباً تقريرياً مباشراً دون رمز أو مواربة أو مماراة؛ حيث يقول:

«كنت أحس سادتي الفرسان

أنكمو أكفان

وكان هذا سر حزني»[2].

أما الشاعر (عصام الغازى) فقد كان أحد الشعراء الذين عاصروا نكسة ٦٧، «وشارك فى حرب الاستنزاف ١٩٦٩، وحرب أكتوبر ١٩٧٣»[3] لذلك جاءت قصائده

(١) الأعمال الكاملة - صلاح عبدالصبور - حياتى فى الشعر - الدواوين الشعرية- ص٤٩٤، ٤٩٥.

(٢) ديوان صلاح عبدالصبور- ص٢١٩.

(٣) الجياد تموت واقفة - عصام الغازى - الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٥- ص٢٢٥ .

التى رصدت أحداث النكسة مغلفة بقدر كبير من الصدق والتلقائية فى تصوير الآثار التى خلفتها تلك النكسة بكل تداعياتها المحبطة.

والشاعر (عصام الغازى) حين يصور النكسة يبتعد كثيراً عن استخدامه (ضمير المتكلم) ولكن كان يعمد إلى ضمائر «الغيبة والخطاب»؛ فى محاولته نسج أبعاد تلك المأساة المروعة، فى إشارة منه إلى أن نكسة ٦٧ مأساة كل فرد من جيل بكامله كان يعيش على أرض مصر. ومن ثم فإن الشاعر (عصام الغازى) يتخير من واقع الريف المصرى نموذجاً متكرراً لشخص فطرى بسيط، وقد أطلق عليه الشاعر اسم (سالم) وأخذ يقص حكاية (سالم) منذ بداية مولده ونشأته؛ فأبوه «مقرى ضرير»، وأمه كانت «تزرع الشعير»:

«قد جاءها المخاض وهى تملأ الجرار

.. فى مطلع النهار

فبشروها بالولد

وكان فاحم العينين.. فائر الجسد

فبخروه.. فوق أعواد البهار

وطوفوه.. وسط أقران صغار

ثم افتدته أمه من الحسد

وعلقت على صداره أسد»[1].

ولكن يبدو أن هذا الفتى الغافل سيكون على موعد مجموعة من الأحداث الغامضة التى لم يتوقعها؛ فمع بلوغ هذا الفتى (عامه العشرين):

«.. أتوا إليه

وسورة الرحمن تغرى شفتيه

وعامه العشرون مزهو عليه

وسالم فى عمره.. ما غادر البلد

(١) المصدر السابق – ص٢٠٣.

قادوه فجأة.. بلا حوار

قادوه مسرعين للقطار

وولولت عليه نسوة البلد

وفلت الدموع مسحة الجلد!»

- «قادوه فى المسالك الطويله

وألبسوه خوذة ثقيله

وعلموه خطوة الجناز

والخطوة السريعة!»[1]

إن الأحداث تتواتر وتتسارع بصورة أدت إلى الذهول والإحساس بالمفاجأة وعدم الاستعداد. وهذا يتضح من حمله مكرهاً على الرحيل عن قريته. وقد أجاد الشاعر التعبير عن ذلك حين استخدم لفظ (قادوه)، كما عمد إلى تخير ألفاظ بعينها، وجعلها تشغل بداية الأسطر الشعرية؛ لتقوية هذا المعنى، وتوكيده (قادوه)، (ألبسوه)، (علموه).

ولكن ما الذى تعلمه سالم فى الجيش؟ هل تعلم كيفية القتال، وتدرب على أحدث الأسلحة؛ لمواجهة العدو الغاشم؟ إن الأمر كان على العكس من ذلك؛ فكل ما علموه له فى الجيش هو «خطوة الجناز، والخطوة السريعة». إنه عدم الاستعداد لملاقاة العدو، وعدم تحصيل الخبرة والتدريب الكافى لتحقيق ذلك، وهو ما ينذر بوقوع الكارثة المحققة، والهزيمة الفادحة:

«لو كنت يا معاويه[2].

لتلمح الخوذات مترعات بالدماء

كأنها كئوس خمر الآلهة[3].

فى «كرنفال» للقلوب الواهه

(١) المصدر السابق – ص٢٠٣ – ٢٠٥ .

(٢) استغل اسم هذا الصحابى الجليل عند عدد من الشعراء المعاصرين باعتباره رمزاً للانتهاز وهو استغلال لا أقره عقدياً. كما أن هذا الكلام لا يستقيم تاريخياً .

(٣) وجاء قول الشاعر: «خمر الآلهة» خارجاً عن أطر العقيدة النقية .

لو كنت بالنابلم تغسل اليدين

لكنت قد برئت من دم الحسين!

لو كنت تشهد الجماجم المنصهره

والأعين المنفجره

وأطنان اللحوم الساجيه..

لو كنت يا معاويه

تواجه «الميراج» بالأيادى الخاويه

لأبصرت عيناك سالم

يعض بالنواجذ الرمال

يعض فى الجبال

يواجه المصير وحده.. بلا رفيق

كأنه الوحيد.. ابن مصر

كأنه الوحيد.. سيف مصر

مغروس فى الرمال

وحوله المحال!»[1].

ولكن أهوال تلك الهزيمة الثقيلة لا تقف عند تلك الحدود المشاهدة الرهيبة، ولكنها تتجاوزها إلى التغلغل فى نفسية هذا الجندى المهزوم؛ لتخلف فيه آثارها النفسية المدمرة:

«وعاد يا معاويه

وعاد فلاح التلال الزاهيه

منكس الجبين والخطى

- لأنهم قد علموه خطوة الجناز-

(١) الجياد تموت واقفة- شعر عصام الغازى – ص٢٠٧، ٢٠٨ .

فى قلبه جراح مصر»

«يجر ليل الذكريات

كأنه رفات

يجر بالأسى أقدامه المهترئات»[1].

عاد ذلك الجندى (سالم) إلى قريته منكس الجبين، متقاصر الخطى بعد أن ذاق مرارة النكسة، واكتوى بنارها. وهذا أمر مبرر بعد أن تعلم هو وغيره من الجنود المصريين خطوة الجناز، والخطوة السريعة»، بينما تعلم العدو وتدرب على أحدث الأسلحة الفتاكة مثل طائرات (الميراج) (والنابالم) الحارق وغير ذلك من الأسلحة المتطورة التى وقف أمامها الجنود المصريون عاجزين مكتوفى الأيدى يستقبلون الموت الذى يتساقط فوق رؤوسهم بدون أدنى مقاومة تذكر. لذلك كانت تعتصرهم مشاعر الحسرة والندم واليأس والإحباط. وقد شكل ذلك فى مخيلة الشاعر صورة مأساوية محبطة ما كانت لتمر دون أن يكرر الشاعر الإشارة إليها فى موضع آخر:

«والطائرات فى مدامع الأفق

تخط بالقنابل الدمار

تخط أى عار!

الزرع فى السهول يحترق

والسد ينفلق

لتغرق المياه كل دار»[2].

هكذا سطر العدو الغاشم نصراً حاسماً على الشعب المصرى المقهور:

«والطائر يحمل فى رئتيه الكلمه

لم يحتمل الصمت فمزق أستار الظلمه

حملته رياح الثورة فوق الوطن المحتل

(١) المصدر السابق – ص٢٠٨، ٢٠٩ .

(٢) السابق نفسه – ص٢١٩ .

يبحث فوق رمال الصحراء عن الظل

يبحث عن لقمة خبز كانت فى جيب شهيد جائع

يبحث فى خاتم إصبعه المبتور عن الوجه الضائع

يبحث عن طوق الفل المنقوع

بدمع حبيبته الثكلى

يبحث فى كل القتلى

عن مصر!»[١].

إن صورة الشهيد الجائع الذى كان يحمل «لقمة خبز» فى جيبه هى صورة تمزق القلوب، وهى صورة لا يعادلها فى قسوتها إلى صورة «تبريز»[٢] التى ساقها الشاعر مدللاً بها على أن نكسة ٦٧ قد تجاوزت آثارها الحدود المصرية؛ لتترك تصدعاتها وتوابعها المدمرة على الجانب الفلسطينى؛ فقد كانت «هنالك أمريكا السيدة وهنا إسرائيل ربيبتها خنجرها المسموم فى قلب الوطن العربى منذ ١٩٤٨، فكيف بعد ١٩٦٧ ووقوع ثالث الحرمين وأولى القبلتين فى إسارها واغتصابها أرض الشعب الفلسطينى كلها»[٣].

يقول الشاعر عصام الغازى:

«كانت تبريز فتاة عربية

تتكحل مثل بنات الدنيا بالأحلام

تنتظر مجيء الفارس»

- كانت تسكن خيمة

تأكل من إحسان لصوص الوطن الضائع

ترضى بضنين العيش، وترضى بهوان الواقع

حتى كان صباح الخامس من يونيو

(١) المصدر السابق- ص١٣٧ .

(٢) (تبريز هلسه) فدائية فلسطينية .

(٣) انظر الشاعر والتجربة، والكلام للشاعر (حسن فتح الباب) ص٩٨ .

فتغير وجه التاريخ

لم تعد الخيمة.. خيمه

صارت إعصاراً يصهر أحزان الإنسان

ويحولها نقمة»[1].

إن أبناء هذا الوطن الشرفاء الذين كانوا قبل نكسة ٦٧ يتحملون الفقر والجوع والذل والتشرد لم تكن تنقصهم كارثة إضافية، وهم ثقيل يقضى على ما تبقى لديهم من أمل فى الحياة. ومما ضاعف من حجم المأساة أن العالم كله كان يتابع تلك المأساة الكبيرة، ويشاهدها وهو غارق فى عدم الاكتراث واللامبالاة. وتلك مفارقة محبطة قاسية استحقت من الشاعر أن يرصدها، ويقف أمامها:

«العالم يضحك كل مساء

يسهر حتى آخر خيط أسود فى الليل

اللحم الأبيض، والأضواء الحمراء

وكئوس الفودكا مثل كئوس الدم

جماجم فى الصحراء

من جرحك.. من جرحى

تنبت أوراق الفل وأزهار العوسج

يتفجر عظمى بركاناً تحت جنازير العربات

وتحت قناديل الحاره

أولد كل مساء طفلاً.. ينمو

يعبث فى أثدية النسوة فى الطرقات

ويزاحم فوق الأرصفة

جنود الحرب وعمال البارات

طفلاً يحمل وجه الإنسان المتمرد

(١) الجياد تموت واقفة – شعر عصام الغازى – ص١٩، ٢٠.

وجه الثورة

وجه الموت الأرخص من أحذية الأموات!»[1].

لقد صار الموت فى عصر النكسة موتاً مجانياً يكون بدون مقابل وبلا ثمن، لأن نكسة يونيو ٦٧ كانت هزيمة ثقيلة لها آثارها الفادحة التى كانت تعتصر قلب الشاعر (عصام الغازى)؛ لتخلف فيه الشعور بالإحباط الذى تغلغل بداخله حتى تمكن من نفسه. وهاهو ذا الشاعر يعود؛ ليحكى عما تعرض له من إحباطات نكسة ٦٧، وآثارها العنيفة على ملامحه الشخصية التى تبددت:

«عدت إليك يا سمراء

أحمل أوراقى الممزقه

وسترتى المرتقه

وذكرياتى المحزنه

أجر ظلى الجريح

تهمة ملفقة!

عدت إليك يا سمراء

هل تذكرين صورتى

من بعد ما زالت وسامتى

وصرت شائها

من بعد ما جردت من ملامحى القديمه

ووجهى القديم!

من بعد ما زال اخضرارى

من بعد ما انتزعت من ديارى

لألعق الأديم»[2].

(١) المصدر السابق – ص٩٩، ١٠٠ .

(٢) السابق– ص١٥٣، ١٥٤ .

إن هذا الانتزاع يحمل بداخله حيثيات الإكراه. وهو ما يذكرنا بالنموذج الذى ساقه الشاعر من قبل (سالم) الذى أكره هو الآخر على الخروج، وتم اقتياده من دياره دون إعداد؛ ليقاد إلى تلك الحرب الرهيبة التى عانى فيها مشاعر تركت آثارها المسمومة المميتة على كل أوجه الحيوية والنضارة فى حياته، وأورثته أحاسيس الخزى والعار:

«هذا الذى يعود يا سمراء
كان تائهاً
فى ليلة شتائيه
هذا الذى يعود قد تبلدت ملامحه
تحجرت ملامحه
وجفت الحياة فى عينيه فجأة»
-«عدت إليك يا سمراء
أحمل عارى الأليم
من بعد ما انزويت أحقاباً طويلة
فى خيمة مهترئه»[1].

كذلك كان الشاعر د/ (محمد أحمد العزب) أحد أبناء هذا «الجيل الذى ما زال يعانى من النكسة، والذى شرب الأجيال التالية فلسفة النكسة التى رضعها قهراً، والتى أصبحت نبراساً مريراً حتى - الآن - و«العزب» واحد من الجيل الذين دمرتهم النكسة»[2]. ومع ذلك وجدت له بعض الدعوات التى تدعو إلى إزالة آثارها الرهيبة:

«هذا نظام الميتين!!
صلوا بفوضى الثائرين..
وعنفوان الرافضين!!

(١) المصدر السابق نفسه - ص١٥٤، ١٥٥.

(٢) نبوءات الشعر - دراسة نقدية فى شعر د/ محمد أحمد العزب ط ١ ١٤١٥ - ١٩٩٥ م - محمد دياب - سنة ٢٠٠٥ - ص٦٤.

صلوا بحد السيف.. لا بالمسبحة!!

واستروحوا نسم الحياة على ضفاف المذبحه!!

المومياء تحركت

لا تقعدوا كالمومياء!!

العصر عصر الفاتحين وليس عصر الأدعياء!!»[1].

وكما فى قصيدته أيضاً (سطور على قاعدة نصُب تذكارى!!) التى ورد فيها أيضاً هذا الحس المقاوم:

«طوبى لنا

يمتصنا زمن طريح خلف أسوار الزمن!!

أعراسنا صمت هناك، وكل محنتنا التحدد والقرار!!

جيفاً مخثرة نصبر..

بأيما عبث طفولى ملاهينا تدار!!

ياسيدى..

لسنا نريدك سيداً لقوافل الدم والغبار!!

يبست أصابعنا

فما عادت تطول الضوء فى أعلى الجدار!!

لكننا ماضون..

نرفع فى اقتدار عن مدائننا الحصار!!

يا سيدى

أطلق على الموت الرصاص..

وقل لنا.. عفواً..

وقل:

(١) الأعمال الشعرية الكاملة – د/ محمد أحمد العزب. ط١ (١٤١٥هـ-١٩٩٥م)، ص٥١٤، ٥١٥ .

ما كان.. كان تهوراً أعمى المسار!!»[1].

كما اتضحت أيضاً تلك الروح المقاومة فى قصائد أخرى لهذا الشاعر، لكننا نلمح آثار الشعور بالإحباط تختلط بتلك الروح المقاومة، ويبدو أن حرص الشاعر على تجسيد صورة هذا الواقع الانهزامى الباكى إلى جانب صورة هذا الواقع المقاوم الرافض يعد تطبيقاً عملياً لرؤيته بعد حلول نكسة ٦٧ التى تلخصت فى أن إنهاض هذين الواقعين، وقطعهما من لحم الظروف الحياتية المعيشية هى «بعض رسالة الشعر المتمرد المقاوم»، يقول الشاعر - نثراً -: «إن الشاعر الذى غمس يراعه فى الجراح.. وبكى.. حتى أبكانا.. ينبغى أن لا نطالبه بالخرس.. ولا بتغيير مسرحه الشعرى.. إلا إذا غيرنا نحن من مسرحنا الواقعى.. وإلا فماذا تغير.. حتى يتغير الشاعر؟ لا تقولوا إن دوره ريادى فهو قائد لا مقود.. إنه يقود من خلال جلدنا بما اجترحت ليالينا.. ومقاهينا على السواء. وأيضاً.. لا نستطيع أن نجهض الشعر المقاوم.. ولا أن نطالبه بالارتماء الفاجع على رصيف الدمع.. إن إنهاض الواقعين على وجههم فى الطين بعض رسالة الشعر المتمرد المقاوم - إذا كانت للشعر رسالة على الإطلاق - ولكن على أن يغنى وهو فاتح ذراعيه للشعر الباكى إلى جواره.. أعنى أن بكائيات شعرائنا بعد الهزيمة لم تكن مروقاً عن جادة التمرد.. ولا انحرافاً عن قضية المقاومة وإنما هى الوجه الآخر للمقاومة والتمرد جميعاً.. بكل ما يحمل هذا الوجه من جراح غائرة.. وأخاديد من فعل السنين..»[2].

لكنى وجدت قصائد لهذا الشاعر تنتمى إلى الشعر الباكى الحزين جاءت على نحو من الانهزامية والتشاؤم واليأس بما لا ينتمى بأى صلة إلى تبيان العيوب والعلل التى تحمل بداخلها الكشف عن حيثيات المقاومة والرغبة فى التغيير. وجاءت على نحوٍ من البكاء الخالص، والإحباط الذى لا تشتم منه رائحة أى تمرد، أو أية مقاومة تذكر. مثل قصيدة «عن الشىء واللاشىء!!» التى يقول فيها الشاعر:

«غمر الأرض الزبد

(١) المصدر السابق - ص٤٧٤، ٤٧٥ .

(٢) دراسات فى الشعر - د/ محمد أحمد العزب - مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٣٩٥هـ - ١٩٩٥م ص٦٥، ٦٦ .

أحبط الروح الجسد

وقع الخلط رذاذاً فى بساتين العدد»

«- زرعنا جف

وماء النهر يجرى للوراء!!

كل ما فى جيبنا من مطر الصيف خواء!!

نصباً نحن أقمنا فى ميادين الرثاء!!

وحدنا فى الأرض..

فى كل المناخات لقصيه!!

مثلما كنا قديماً فى الفجاج الرعوية!!»[1].

ومثل قصيدته «التعرى» التى وصل فيها الشاعر إلى قمة التشاؤم واليأس حين سوى بين الأحياء والموتى فى سلبية الفعل، وعدميته:

«لقد شابت نواصينا

ولما ننسج الأكفان للموتى من الأحياء!!

فموتانا.. بلا عدد..

وأيدينا يغللها قصور تجارب الآباء!!

سئمنا وجهنا المجلو فى مرآتنا أبدا!!

وتقنا أن نراه مجعد القسمات مرتعدا!!»

-«كملعونين نحن نسير من درب إلى درب!!

نفتش فى قمامات الأسى والحزن عن رب!!

ونلعق أرجل التاريخ عبر مواسم الجدب!!

نقئ حضارة شاخت!!

بنا شاخت!!

(١) الأعمال الشعرية الكاملة – د/ محمد أحمد العزب – ص٥٣٩، ٢٤٠.

ونبصق نبضنا (المسروق) من نخب إلى نخب!!»[1].

كما يتردد أيضاً هذا التشاؤم واليأس الذى يفتقد أى بارقة أمل فى قصيدة «غعناء فى الغرف الداخلية».

«إنا نجف ..

نموت ..

نذبل فى الزمان المستباح»

وفى المكان المستباح»

-«جرحنا أقسى وأفدح من ملايين الجراح!!» [2].

وكذلك قصيدته «الصيف الرجيم» التى يقول فيها:

«الصيف كان راية الذين يبحرون للنهار!!

وراية الذين يصنعون روعة النهار!!

لكنه قد عاد هذا العام مطفأ العينين..

ممزق الإزار

تلكأت قوافله

على مرافئ الغبار!!»[3].

هكذا بدا الشعور بالإحباط متمكناً من نفس هذا الشاعر بدرجة لا يمكن إغفالها أو التغاضى عن آثارها الفادحة إلى درجة أنه لم يتمن يائساً عودة الزمن إلى الوراء وحسب – كما فعل الشاعر (صلاح عبد الصبور) [4]– وإنما أراد لهذا الزمن أن يتجمد تماماً، وأن يتوقف نهائياً عن القيام بدورته الطبيعية؛ حتى لا يأتى هذا الوقت الذى رأى فيه انهيار حلمه، وإفاقته على هول نكسة عمت فداحة آثارها أجزاء عديدة من الوطن العربى. ومن ثم وجدناه يواجه المقاتل العربى المهزوم بهذا الخطاب المحبط:

(١) السابق – ص ٥٦١– ٥٦٣ .

(٢) السابق نفسه ص٤٩٥ .

(٣) السابق – ص٥٥٨ .

(٤) انظر – الأعمال الكاملة – صلاح عبد الصبور – حياتى فى الشعر – ص٤٤٧ .

«جئتنا ؟؟

يا ليت شيئاً أمهلك!!

أيها الباكي.. وكان الملك لك!!

ليت ما دار الفلك!!

أيها الآتي إلينا من جليد وثني!!

مر من يونيو.. على أشلاء جيل عربي!!

مر من طولكرم..

من سوريا

من الأردن..

من سينا

على عشرة آلاف نبي!!»

«لاتجئنا

حجر الأيام في قلبك..

حتى والثواني!!

شلها طول الزمان!!»[1].

إن الشاعر لم يعد يقوى على تحمل وقع آثار تلك النكسة الرهيبة على نفسه؛ لذلك لم تقف أمنياته عند حدود توقيف الزمن الفعلي، وتجميد حركته، ولكننا وجدناه في قصيدة أخرى يتمنى الفرار إلى زمن خيالي هروبي اخترعه؛ ليحلم فيه بالخلاص -ولو مؤقتاً- من آثار نكسة ٦٧ بمفرداتها وتداعياتها الخطيرة التي تركت آثارها العنيفة في نفسه. يقول الشاعر:

«(بيان عسكري رقم ....)

وانهل المدى بالغدر!!

بيان عسكري رقم ....)

(١) الأعمال الشعرية الكاملة. د/ محمد أحمد العزب - ص٥٥٥، ٥٥٦.

واحترقت روابى العار!!

(بيان عسكرى رقم ....)

وأكتب أجمل الأشعار

لعينيه..

أغنى أجمل الأشعار!!

أقول له..

أعد لى صوتى المسروق من عامين فى الإعصار!!

أعد لى قامتى.. وملامحى.. وجنون أن أختار!!

أعد للناس عشق قراءة الأخبار!!

أعد لصفاء أعيننا ملامح أعين الأطهار!!

أعد للخوذة الصفراء فوق رؤوس عسكرنا..

صراخ النار!!

وخذ منا فتات الخبز..

خذ حتى سراج الدار!!!»[1].

إن البيانات العسكرية التى بدأت تصدر مع انطلاق الشرارة الأولى لحرب يونية ٦٧ كانت تعد الشعب المصرى، وتمنيه بنصر مؤزر قادم لا محالة، ولكن الشاعر وغيره من أبناء وطنه قد استفاقوا مما تعرضوا له من زيف وتضليل وخداع؛ ليجدوا أنفسهم فى مواجهة هزيمة ثقيلة لم يتخيلوها.

وتكرار الفعل (أعد) الذى جاء به الشاعر أمر يخرج عن حقيقته؛ فالزمن لا يرجع إلى الوراء. ومن ثم فإن الشاعر يعى جيداً أنه يطلب المستحيل. لذلك حمل هذا الأمر حيثيات الشعور بالإحباط والحسرة والندم. وهو ما أوقع الشاعر فى براثن هذا التمنى المستحيل؛ بالعودة إلى ما قبل يوم ٥ يونيو ٦٧؛ حتى يتخلص من ثقل الإحساس الفادح الذى خلفته تلك النكسة فى نفسه.

(١) المصدر السابق – ص٤٨٩.

ويلاحظ طغيان (علامات التعجب). وسيطرتها على معظم أواخر الأبيات الشعرية التى تناولت هذا الحدث الرهيب، وذلك يشف عما استكنت فى أغوار نفس الشاعر من دهشة وذهول؛ من بعد الشقة بين آمال ووعود بالنصر المؤزر، وبين الإفاقة على وقع تلك النكسة الكبيرة التى لم تكن فى الحسبان:

«القمح كان غرس هذا العام

لكنه قد أثمر الهزيمة!!»[1].

إن (علامات التعجب) تبدو وكأنها المسيطرة على مخيلة الشاعر فى تلك الحقبة؛ فقد صارت ملازمة له، وملتصقة به من قصيدة إلى أخرى، وهو مايعنى استمرار اندهاش الشاعر، واستمرار معاناته الرهيبة التى أدت إلى تناوب مشاعر الإحباط عليه حالاً بعد حال. وفى النهاية يعتمد الشاعر فى التعبير عن تلك المأساة المروعة ضمير المتكلم الجمع؛ ليعلن من خلاله عن مأساة ليست فردية، ولكنها مأساة جماعية شملت جيلاً بكامله سيطرت عليه مشاعر اليأس والتشاؤم والإحباط فى أعقاب هزيمة ٦٧:

«نحن لا نعرف حرفاً من قوانين العبور!!

نحن فى عصر نسينا فيه أسماء الميادين..

وأسماء الشوارع!!

نحن لا نعرف أن نعرف معنى لامتدادات العصور!!

نحن قراء رديئون..

رسبنا فى امتلاك الحرف..

فى خلق بديل

فى احتواء اللامبالاة (إذا شئنا) على

كل الجسور!!

نحن من خلف..

إلى خلف خرافى.. ندور!!

(١) السابق- ص٥٥٤.

نحن من خلف خرافى..

إلى خلف.. ندور!!

نحن من خلف خرافى..

إلى خلف خرافى.. ندور!!!»[1].

كما يتبادل الضميران (المتكلم المفرد، والجمع) مكانهما فى صورة مأساوية غاية فى الإحباط:

«للسيف لا للرب أحنينا الجذوع الراكعه!!

ومدائناً خزفية الأسوار جزنا فى اتجاه الفاجعه!!

معبودتى غسلت ضفائرها على نهر الصباح.

ومع المساء رأيتها تبكى الكنوز الضائعه!!

الواقفون على تفاريق العصور!!

بمعاطف الأحياء..

من كل البشر..

يتفرسون بوجهى المجدور آلاف البثور..

ويتمتمون:

هذا بلا عصر

أضاع عصوره تحت الصخور!!

يا أيها الماضى الذى أسلمتني لغد يباب!!

ماذا سوى نبش القبور؟»[2].

هكذا تعددت محاور الشعور بالإحباط، تبعاً لتنوع وارتفاع نسبة المستويات الارتدادية العنيفة التى أحدثتها تلك الكارثة من شروخ وتصدعات تركت آثارها الغائرة على كافة وجوه الحياة فى مصر. لذلك كان من الطبعى أن تتمكن مشاعر الإحباط من

(١) المصدر السابق- ص٤٤٣ .

(٢) المصدر السابق- ص٥١٣ .

نفوس عدد كبير من الشعراء المصريين.

ويكفى أن نستمع إلى شاعرة عاصرت تلك النكسة، هى (جليلة رضا) وهى تحاول رسم أبعاد تلك المأساة على أبناء جيلها؛ لنكتشف عمق الآثار التى تركتها تلك الحرب العبثية فى نفوس المصريين عامة، والشعراء منهم على وجه الخصوص، تقول: «لذلك أحسسنا باللوعة عند هزيمتنا غير المتوقعة، كلنا ذبحنا.. كلنا كدنا نفقد العقل، بل فقدناه فعلاً.. كلنا تمزقنا إرباً إرباً.. لذلك لم يكن من السهل علينا بعد ذلك أن نعود إلى «لملمة» أوصالنا المتقطعة المنثورة.. لم يكن من السهل لأم جراحنا وإفاقة أرواحنا الميتة.. حتى ولو بانتصار كبير فى حرب أكتوبر»[1].



(١) الثورة والإحباط – مذكرات أساتذة الأدب والأدباء- د/ محمد الجوادى – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ٢٠٠٥- ص٢٢٢.



الفصل الثالث

إجهاض انتصار أكتوبر ١٩٧٣م



تعد حرب السادس من أكتوبر ١٩٧٣ هى الحرب الأولى والوحيدة التى انتصر فيها جيش عربى على العدو الإسرائيلى فى حرب تقليدية مفتوحة؛ وذلك ما دفع صانع القرار فى مصر إلى تأمين هذا النصر بصورة شابها – فى تقديرى – التعجل وعدم القراءة الجيدة لمناورات العدو الذى يحظى بتأييد مطلق من الغرب والولايات المتحدة الأمريكية التى وضعت كل إمكاناتها فى خدمة العدو الصهيونى؛ مما جعل ميزان القوة يميل إلى جانب إسرائيل.

ولعل نكسة يونيو ٦٧ كانت مازالت تخيم على مخيلة القائم على أمر السلطة فى مصر؛ مما جعله يمضى قدماً فى السعى إلى اتفاق يضمن (وقف لإطلاق النار)، وإفساح المجال لإجراء المفاوضات .

لكن هذه المفاوضات التى بدأت مع «فك الاشتباك الثانى فى ١ سبتمبر بين مصر وإسرائيل وحتى توقيع اتفاق كامب ديفيد فى ٢٦ مارس سنة ١٩٧٩»[1] فطن عدد من الشعراء وغيرهم إلى ما انطوت عليه من ثغرات أغرت العدو بالقيام بمؤامراته الخبيثة؛ ففى «كل مشروع سلمى يطرح كان موقف إسرائيل يتوخى الدقة فى فهمه وإدراك مردوداته الإيجابية بالنسبة لها»[2] إنها «سعت على الدوام إلى دفع العرب نحو القبول أو الاقتناع بالدخول معها فى عملية مفاوضة حول المشاكل العالقة بين الطرفين وجرهم إلى مشاريع تسوية سلمية بدل الحرب، وأن عملية المفاوضة أساساً تتضمن حقيقة اعتبار إسرائيل لنفسها دولة وكيان سياسى شرعى وأن عملية الحرب بحد ذاتها تنفى هذا الاعتبار فالتفاوض كيفما كان هو اعتراف بوجودها حتى وإن كان هذا الاعتراف هو سلباً ورفضاً فى خضم فعل التفاوض، فإن الرفض هنا ينطوى على حقيقة بالقبول والاعتراف بالوجود، لأن رفض الوجود ينبثق أساساً من وجود قائم فعلاً، فالرفض هو معطى ثانوى لواقع أساسى هو الوجود المسبق لكيان ما. ومن هنا وقعت الدول العربية فى فخ الاعتراف بوجود دولة عبر رفض وجود هذه الدولة. وعلى هذا المنوال فقد توالت مراحل التفاوض السلبى اللاحقة أو الرفض العربى الذى كان نقطة إيجابية

(١) الدم وثنائية الدلالة – د/ مراد عبد الرحمن مبروك ص٢٦.

(٢) الخصوصية الاستراتيجية للعالم العربى – د. علاء طاهر – الهيئة المصرية العامة للكتاب – سنة ١٩٩٢ – ص١٢٦ .

للجانب الإسرائيلى»[1] «وكانت لعبة إسرائيل الجديدة هى استثمار الطريقة المستجدة على طبيعة الصراع والقاضية بالتنازل التدريجى من قبل العرب والاعتراف المتزايد بوجودها والتورط بمناقشة التفاصيل الصغيرة وتناسى القضايا المبدئية الكبرى»[2].

«فكان أسلوب إسرائيل على الدوام هو الانتقال من تفصيل ثانوى إلى تفصيل آخر أصغر من سابقه، وذلك لأجل تكريس ما هو راهن وجديد لكى يكون حقيقة راسخة إضافية تصلح لأن تكون منطلقاً لكسب واقع احتلالى راهن جديد يغدو راسخاً بعد ذلك عبر طرحها لتفاصيل ثانوية بعده تصلح منطلقاً لوضع جديد.. وهكذا»[3]. وبذلك فقد «غدت حالة احتلال الأراضى الإقليمية أو تحريرها محض فعل تكتيكى داخل جهد استراتيجى طويل الأمد يسعى إلى تذويب الهدف الأعلى أو تمويهه داخل عملية المساومة على رد الأرض أو استردادها مغطياً بذلك على الهدف الأساسى الذى ينحو باتجاه تركيز الكيان السياسى للدولة ونزع الاعتراف التدريجى بوجودها الشرعى. ومن هنا يغدو العمل العسكرى أو المواجهة المسلحة عملاً ثانوياً بالنسبة للهدف الأعلى الذى يموضع نتائجه فى أعقاب الفعالية الدبلوماسية اللاحقة للعمل العسكرى»[4]. ولذلك فقد «تلاحق السيناريو المعروف فى زيارة السادات لإسرائيل ثم عقد معاهدة كامب ديفيد، حيث حصلت إسرائيل عبرها على أقصى ما يمكن لمنتصر وليس لمهزوم، بينما قدمت مصر أعلى حد من التنازلات وكأن النصر العسكرى لم يكن، هذا علاوة على كسب إسرائيل لغاية استراتيجية عليا هى إخراج مصر من الصراع وانتزاع اعترافها بكيان الدولة الصهيونية[5].

«وهنا يجدر التساؤل: ما هى الجدوى من حرب أكتوبر، ألم يكن بالإمكان أن تحقق مصر كل ما حققته فى معاهدة كامب ديفيد بدون حرب بل بمفاوضات مباشرة مع إسرائيل وبخروجها من حلبة الصراع فقط»[6]، وهل استثمر العرب «هذا الانتصار

(١) المرجع السابق، ص١٢٣ .
(٢) السابق – ص١٢٧ .
(٣) المرجع السابق– ص١٢٧ .
(٤) السابق نفسه – ص١٢٢ .
(٥) السابق نفسه– ص١٣١.
(٦) السابق – ص١٣١، ١٣٢ .

الحاسم فى جهودهم الدبلوماسية بحيث جعلوا إسرائيل تتراجع عن هدفها الأعلى وهل تقدموا نحو أهدافهم النهائية فى تحرير الأرض وكسر شوكة إسرائيل المتعنتة وجعلها ترضخ لطلباتهم المشروعة القاضية بإقامة دولة للفلسطينيين واستعادة أراضيهم المحتلة و...»[١].

والحق أن الأمور قد صارت على العكس من ذلك تماماً. إذ ظلت مصر – وبعدها معظم الدول العربية – تتفاوض مع إسرائيل بمبدأ المنهزم على الرغم من تحقيق نصر أكتوبر. وهو ما خلف لدى عدد من الشعراء المصريين شعوراً حاداً بالإحباط؛ فقد رأوا فى محادثات السلام، ومعاهدة الصلح مع إسرائيل إهداراً لما تبقى لديهم من أمل، وإجهاضاً لما طمحوا إليه من جنى ثمار نصر أكتوبر ١٩٧٣ الذى ظنوا أنه سيكون بداية الطريق للعودة بالكرامة المسلوبة، واسترداد الأراضى العربية المغتصبة.

هذا، «فضلاً عن نسيان العربى لدماء أخيه العربى التى سفكت فوق هذه الأرض بل الاعتراف بالأراضى التى امتزجت بالدم العربى بأنها أرض العدو»[٢]. «وكأن الدم العربى الذى أهدره العدو الصهيونى، ولا يزال يهدره حتى توقيع اتفاقية كامب ديفيد، وما بعد كامب ديفيد، وحتى وقتنا الحالى* لا قيمة له»[٣].

ولذلك فقد تبدى الشعور بالإحباط واضحاً على عدد من الشعراء المصريين، وسرى فى أشعارهم بصورة حادة وعنيفة.

وعلى رأس هؤلاء الشعراء يأتى الشاعر (أمل دنقل)؛ فقد كان موقفه «من الصلح مع إسرائيل هو موقف المعارضة الصريحة»[٤].

وقد أسبق هذه المعاهدة بالتحذير منها بعد أن أكد على أن فرضية حدوثها يعنى بالضرورة إهداراً للدم العربى الذى أريق على طول تاريخ الصراع العربى الإسرائيلى. وذلك فى قصيدته (لا تصالح) التى «أصبحت من معلقات الشعر الحديث»[٥]. يقول

---

(١) السابق – ص١٣٠.

(٢) الدم وثنائية الدلالة – ص٣٦.

* يضع صاحب المرجع سنة (١٩٩٣) بعد عبارة (وحتى وقتنا الحالى) وقد آثرت حذف هذا التاريخ فالدماء ما زالت تسفك وتهدر حتى وقتنا الحالى (٢٠١٢) وحتى يقضى الله أمره.

(٣) السابق نفسه – ص٩.

(٤) المدينة فى الشعر العربى المعاصر – د/ مختار على أبو غالى – ص٢٣٥.

(٥) صلاح فضل والشعرية العربية – تأليف/ أمجد ريان- ط دار قباء ٢٠٠٠م – ص٦٣.

الشاعر:

لا تصالح!

.. ولو منحوك الذهب

أترى حين أفقأ عينيك،

ثم أثبت جوهرتين مكانهما..

هل ترى..؟

هى أشياء لا تشترى»[1].

ثم يغوص الشاعر فى براعة فائقة فى أعماق هذا الحس الإنسانى النبيل:

«ذكريات الطفولة بين أخيك وبينك

حسكما – فجأة – بالرجولة،

هذا الحياء الذى يكبت الشوق.. حين تعانقه،

الصمت – مبتسمين – لتأنيب أمكما..

وكأنكما

ما تزالان طفلين!

تلك الطمأنينة الأبدية بينكما:

أن سيفان سيفك..

صوتان صوتك

أنك إن مت:

للبيت رب

وللطفل أب

هل يصير دمى – بين عينيك – ماء؟

أتنسى ردائى الملطخ..

(١) الأعمال الكاملة – أمل دنقل – ص٣٤٧ .

تلبس – فوق دمائى – ثياباً مطرزة بالقصب؟»[1]

ومن ثم ينفذ الشاعر مباشرة إلى صلب نداءاته وتحذيراته؛ فقد افتتح الشاعر قصيدته، وعنون لها بقوله: (لا تصالح). وهو نهى يستند فى حقيقته إلى مجموعة من المبررات والحجج المنطقية التى ساقها الشاعر؛ للتأكيد على فداحة الخطأ الذى سيرتكبه صانع القرار فى مصر إن هو أقدم على عقد مثل تلك الاتفاقية مع العدو الإسرائيلى، يقول الشاعر:

«إنها الحرب

قد تثقل القلب..

لكن خلفك عار العرب

لا تصالح..

ولا تتوخ الهرب!

لا تصالح على الدم.. حتى بدم!

لا تصالح! ولو قيل رأس برأس

أكل الرؤوس سواء؟

أقلب الغريب كقلب أخيك؟!

أعيناه عينا أخيك؟

وهل تساوى يد... سيفها كان لك

بيد سيفها أثكلك؟

سيقولون:

جئناك كى تحقن الدم..

جئناك. كن يا أمير – الحكم

سيقولون:

(١) المصدر السابق – ص٣٤٧، ٣٤٨.

ها نحن أبناء عم

قل لهم إنهم لم يراعوا العمومة فيمن هلك»

-«لا تصالح..

ولو حرمتك الرقاد

صرخات الندامة»

-«لاتصالح

ولو توجوك بتاج الإمارة

كيف تخطو على جثة ابن أبيك..؟

وكيف تصير المليك..

على أوجه البهجة المستعارة؟

كيف تنظر فى يد من صافحوك..

فلا تبصر الدم..

فى كل كف؟»

- «لا تصالح،

ولو توجوك بتاج الإمارة

إن عرشك: سيف

وسيفك: زيف

إذا لم تزن - بذؤابته - لحظات الشرف

واستطبت - الترف

لا تصالح

ولو قال من مال عند الصدام

«ما بنا طاقة لامتشاق الحسام...»

-«لا تصالح،

ولو قيل ما قيل من كلمات السلام
كيف تستنشق الرئتان النسيم المدنس؟
كيف تنظر في عيني امرأة..
أنت تعرف أنك لا تستطيع حمايتها؟
كيف تصبح فارسها في الغرام؟
كيف ترجوا غداً.. لوليد ينام
- كيف تحلم أو تتغنى بمستقبل لغلام
وهو يكبر - بين يدك - بقلب منكس؟
لا تصالح
ولا تقتسم مع من قتلوك الطعام.
وارو قلبك بالدم..
وارو التراب المقدس..
وارو أسلافك الراقدين..
إلى أن ترد عليك العظام!»
-«إنه ليس ثأرك وحدك
لكنه ثأر جيل فجيل»[1]

هكذا تمضى القصيدة على هذا النحو، من تقديم الأسباب والمبررات المنطقية التى تكفى لسد الطريق أمام المفاوض المصرى؛ حتى لا يفكر فى المضى قدماً فى عقد تلك المعاهدة تحت أى ضغط.

لذلك جاءت القصيدة على هذا النحو الذى لايحتاج تأويلاً؛ لأنها تشى بمشاعر محبطة تعتمل بداخل هذا الشاعر الذى لم يخف تلهفه إلى استباق وقوع كارثة التصالح مع إسرائيل. وكأننا بالشاعر فى تلك القصيدة عندما ارتضى لها (الأسلوب الإنشائى) كان يسعى للحصول على إجابة مطمئنة يضمن بمحتواها عدم المضى قدماً فى طريق

(١) المصدر السابق ص٣٤٨- ٣٥٥ .

توقيع تلك الاتفاقية مع هذا العدو الغادر. «فالشاعر يرفض سياسة الصلح مع العدو؛ خاصة إذا كانت قائمة على تشتيت وتمزيق الصف العربى لحساب القوى الصهيونية والمصالح الأمريكية. إنه يحث القوى السلطوية ممثلة فى السادات على الأقل ألا يقبل الصلح، مهما كانت طبيعة الإغراءات المادية التى تقدم فى شكل معونات. فالدماء العربية التى أهدرت لا يمكن إعادتها مرة أخرى، والعينان إذا أصابهما العمى لا يصلح أن نضع مكانهما جوهرتين من ذهب، كذلك الدماء إذا أهدرت لايمكن مقايضتها بالمال أو الذهب أو المعونات الأمريكية. فأخوة الدم لا تشترى، والدماء العربية التى تهدر فى بلد عربى آخر لا يمكن استبدالها أو إعادتها مرة أخرى»[(١)] ويلاحظ تكرار الشاعر عبارة «لا تصالح» (عشرين مرة) فى تلك القصيدة، كما يلاحظ أيضاً التنويع فى مواقع عرضها (كتابياً)؛ فتارة نجد الشاعر يضع أمامها علامة التعجب (!)، وتارة نجده يضع أمامها النقاط (...)، وتارة ثالثة يأتى بها وهى مقترنة بالفاصلة (،). هذا بينما تأتى فى أحيان أخرى وهى مجردة من أية علامة.

هذا. فضلاً عن وقوع هذه العبارة – فى معظم الأحيان – فى بداية كل مقطع من القصيدة، كما نجدها ترد فى أحيان أخرى بداخل السطر الشعرى، وفى النهاية نجد الشاعر يفرد لها المقطع الأخير من قصيدته، ويجعله خاصاً بها وحدها:

«لا تصالح

لا تصالح»[(٢)].

إن هذا التنويع فى طريقة العرض الكتابى لتلك العبارة (لا تصالح) يعكس مدى خوف الشاعر من أن تؤدى محادثات السلام إلى عقد اتفاقية صلحَ مع إسرائيل وهو ما يعنى أن يتحول كل ما خاضه، وكل ما تحمله أبناء جيله من تضحيات جسام إلى ورقة رخيصة يتم اللعب بها على مائدة الصلح والمفاوضات:

«قالت امرأة فى ألم

من يجرؤ الآن أن يخفض العلم القرمزى

(١) الدم وثنائية الدلالة – د/ مراد عبد الرحمن مبروك – ص٢٨٧ .

(٢) الأعمال الكاملة – أمل دنقل ص٣٥٩ .

الذى رفعته الجماجم؟

أو يبيع رغيف الدم الساخن المتخثر فى الرمال.

أو يمد يداً للعظام التى ما استكانت

(وكانت رجال)

كى تكون قوائم مائلة للتواقيع

أو قلما

أو عصاً فى المراسم

لم يجبها أحد

غير سيف قديم

وصورة جدا»[1].

إنها صورة محزنة أفصحت عن تحذيرات أطلقها الشاعر لم تجد نفعاً؛ فقد بدا واضحاً أن السلطة فى مصر ماضية قدماً فى توقيع تلك المعاهدة، كما بدا واضحاً أيضاً أنها لن تكترث لما يطلقه هذا الشاعر أو غيره من صيحات محذرة. وهو ما يعنى فى النهاية أن توقيع هذه المعاهدة سيكون وشيكاً، وما كان له أن يتم إلا بعد مروره على أنقاض أكوام متكدسة من لحوم الضحايا الشهداء الأطهار.

وبالطبع يتحمل مسئولية ذلك رأس السلطة الذى سقط فى شرك تلك المعاهدة، لذا توجه إليه الشاعر بقوله:

«ونحن – جيل بعد جيل – فى ميادين المراهنة

نموت تحت الأحصنة!

وأنت فى المذياع، فى جرائد التهوين

تستوقف الفارين

تخطب فيهم صائحاً: «حطين»..

وترتدى العقال تارة

(١) المصدر السابق – ص٤٣٧، ٤٣٨.

وترتدى ملابس الفدائيين
وتشرب الشاى مع الجنود
فى المعسكرات الخشنة
وترفع الراية،
حتى تسترد المدن المرتهنة
وتطلق النار على جوادك المسكين
حتى سقطت – أيها الزعيم
واغتالتك أيدى الكهنة!
(وطنى لو شغلت بالخلد عنه..)
(نازعتى – لمجلس الأمن – نفسى![1]).

إن الشعور بالإحباط قد أطل برأسه بعد أن أفرز تلك السخرية المرة من تلك النزعة الانهزامية التى ماظن الشاعر أنها تظهر بعد تحقيق انتصار ٧٣. وهو ما جعل الشعور بالإحباط واليأس يسيطر على مخيلته إلى الحد الذى سمعناه معه يقول:

«اركضى أوقفى الآن.. أيتها الخيل:
لست المغيرات صبحاً
ولا العاديات – كما قيل – ضبحاً
ولا خضرة فى طريقك تمحى
ولا طفل أضحى
إذا ما مررت به.. يتنحى»
–«اركضى كالسلاحف
نحو زوايا المتاحف
صيرى تماثيل من حجر فى الميادين

(١) المصدر السابق – ص٤٢٨، ٤٢٩.

صيرى أراجيح من خشب للصغار – الرياحين

صيرى فوارس حلوى بموسمك النبوى

وللصبية الفقراء حصاناً من الطين

صيرى رسوماً.. ووشماً

تجف الخطوط به

مثلما جف – فى رئتيك – الصهيل!»

-«فاركضى أوقفى

كل درب يقودك من مستحيل إلى مستحيل!»

- «اركضى للقرار

واركضى أوقفى فى طريق الفرار

تتساوى محصلة الركض والرفض فى الأرض»

- «استدارت – إلى الغرب – مزولة الوقت

صارت الخيل ناساً تسير إلى هوة الصمت

بينما الناس خيل تسير إلى هوة الموت!»[1].

لقد فقد الواقع منطقيته حتى وصل إلى الحد الذى أصبح فيه البشر قابلين لتبادل الأدوار مع كائنات أخرى، وهو تصوير يعكس مدى ما يعانيه هذا الشاعر من مشاعر الإحباط التى تناوبت عليه فى صورة مخاوف، وهواجس قبل توقيع تلك المعاهدة، ثم تحولت إلى هم ثقيل، وشعور قاتل باليأس والقنوط مع دخول هذه المعاهدة حيز التنفيذ، وتحولها إلى أمر واقع فرض على الشاعر وغيره من أبناء وطنه أن يتحملوا تداعياتها وآثارها المحبطة:

«ماذا تبقى لك الآن:

ماذا

سوى عرق يتصبب من تعب

(١) انظر المصدر السابق نفسه – ص٤١٧ – ٤٢٢ .

يستحيل دنانير من ذهب

فى جيوب هواة سلالاتك العربية

فى حلبات المراهنة الدائرية

فى نزهات المركبات السياحية المشتهاة

وفى المتعة المشتراة

وفى المرأة الأجنبية تعلوك تحت

ظل أبى الهول..

(هذا الذى كسرت أنفه

لعنة الانتظار الطويل)»[1].

وهكذا اتضح «مدى المساومة على الدماء العربية التى أريقت، وعلى المخطط الإسرائيلى لعزل مصر عن البلدان العربية، وبرغم رفض القوى الشعبية، ورفض المثقفين فى مصر لهذا التطبيع، ولسياسة الصلح المنفردة، وللتنازلات المقدمة من الجانب المصرى، إلا أن السادات قد استمر فى سياسته. ومن ثم، رفض الشعراء العرب هذا التحول السياسى، وحسن توفيق واحد من الشعراء العرب الذين عبروا عن هذا التحول». وقد تمثل ذلك فيما أنتج هذا الشاعر من قصائد يرفض من خلالها «السياسات المزعومة، ويرفض المساومة على الدماء العربية، ويعرى المساومات السرية، والخطب الجوفاء التى تلقى فى المنابر السياسية، وتخلو من المضمون الجوهرى»[2]. ومن ثم وجدناه يتوجه مباشرة إلى رئيس الوزراء الإسرائيلى (مناحم بيجين) مفنداً مزاعمه، وكاشفاً عن الوجه القبيح الذى أخفاه تحت قناع الحب والسلام:

«بيجين يا شهوة النازية انتفضت ... والسم فى نابها المعقوف غدار

الحب للسلم بعض من مزاعمكم ... فشعبكم لاقتلاع الأمن مختار

عذبتم السيد السامى على جبل ... ودستم الحب مذ هدت لنا دار

---

(١) المصدر السابق – ص٤٢١، ص٤٢٢ .

(٢) الدم وثنائية الدلالة – د/ مراد عبد الرحمن مبروك – ص٣٠٤، ٣٠٥ .

بيجــين إن ضـــمير العصـــر مرتبــك ... مــذ قيــل: قــد ينشــق الأزهــار جــزار
لا حب يا من حجبت النور عن دمنا ... فالحـــب لـــيس لديـــه سمســـار
لا حــب والأرض فى أيـدى الغـزاة وإن ... خاف الطغاة على عرش سينهار»[1]

وإذن؛ فالشاعر لديه دوافعه المقبولة لرفضه محادثات السلام، والصلح مع العدو الإسرائيلي خاصة وأن تلك الدوافع والمبررات انطلقت من منطق ضرورة انسحاب إسرائيل من جميع الأراضى العربية التى احتلتها كخطوة تبدى حسن النية قبل الخوض فى تطبيق أى معاهدة صلح معها:

«ليس معنى الغضب
أننا نرفض السلم.. لا.. إنما فليعد أولاً كل حق لنا
فلتعد أرضنا كلها.. ولتعد كل أرض العرب
ولتكن أرضنا أرضنا، ولتكن شمسنا شمسنا
وليعد من يبيتون ليلاتهم فى ظلام الخيام
فوق طين المذله
فليعودوا إلى أرض أجدادهم دون أن يركلوا بين يوم وليله
يومها يبحث الناس بالحب عن عمق معنى السلام»[2].

ولا يفوت الشاعر أن يؤكد رؤيته هذه عندما يسوق عدداً من الجرائم المروعة التى ارتكبها هذا العدو الغادر بحق أبناء الوطن العربى الأبرياء فى فلسطين وسوريا ومصر؛ بغية تحفيز المفاوضين المصريين، وتذكيرهم بالدماء العربية الطاهرة البريئة التى أراقها هذا العدو البغيض؛ حتى لا ينسى هؤلاء المفاوضون فتضيع دماء الشهداء، وتضيع الأرض هباءً:

«يا دير يا سين اشهدى
يا كفر قاسم.. يا دم الأطفال.. فى الجولان.. فى بحر البقر

(١) الأعمال الكاملة – حسن توفيق – ص٢٦٦ .
(٢) المصدر السابق – ص٢٥٤ .

اصرخ هنا- كالويل – والعن غفلة الصنم الشقى المجهد

ما أتعس السلم المطل.. ولم تزل أمالنا وخيامنا دون البشر!»[1]

إن كلمات الشاعر تلك توجه كل المؤشرات إلى واقع داخلى فاسد شاعت فيه أكاذيب معسولة عن جنى ثمار نصر أكتوبر، وتحقيق كل النتائج المرجوة. ولكن فى حقيقة الأمر كان الواقع المعيش يكذب ذلك، ويدحضه:

«طرقات الناس كانت لأمانيهم فسيحه

فلماذا اليوم تبدو كالحات مربكه

أيها الذكرى الجريحه

ادفعينى طلقة تجتاح أضلاع لصوص مستشاريين لغشاشين

خاضوا

معركه

ليطلوا فى غرور

زاعمين اليوم أن النصر نصر الشعب نصر للجوارى فى القصور

إنه عصر كلاب الصيد لا عصر صلاح الدين والروح المليحه»[2].

إنه إذن عصر كلاب الصيد، أو – فلنقل – هو عصر الانتهاز واقتناص الفرص والثراء حتى وإن كان ذلك بالمساومة على أرواح الشهداء، وبيع الأرض. ومن ثم فإن الشاعر يتوجه إلى روح الرئيس الراحل (جمال عبد الناصر)؛ ليبثه حزنه وألمه وشكواه من ذلك الواقع الذى دنسته «أطماع أشباه الرجال»:

«هاهى الأرض حزينه

آه لو تصحو قليلاً كى تراها يا جمال

إنها باتت سجينه

دنستها الآن أطماع لأشباه الرجال

(١) المصدر السابق – ص٢٥٨، ٢٥٩.

(٢) المصدر السابق – ص٢٤٧، ٢٤٨.

رهنوها فى دهاليز البنوك الأجنبيه

ثم ألقوها لأنياب الذئاب العنصريه»[1].

وهكذا خابت آمال الشاعر فى حصد النتائج المرجوة من نصر أكتوبر التى كانت تتلخص فى استعادة الكرامة العربية المسلوبة، واسترداد الأراضى والحقوق المغتصبة. لذلك بدا الشعور بالإحباط حليفاً للشاعر. خاصة بعد أن رأى الإصرار من قبل السلطة المصرية على عقد معاهدة الصلح مع إسرائيل، وسعيها الدءوب من أجل تحقيق ذلك؛ خاصة بعد زيارة الرئيس السادات إلى إسرائيل (فى ١٩ نوفمبر ١٩٧٧)؛ ومن ثم ازداد يأس الشاعر، وتكالبت عليه مشاعر الإحباط من هذا المفاوض المصرى الذى توجه إليه الشاعر هاجياً ساخراً منه بصورة أراها غاية فى المبالغة التى تفتقد اللياقة:

فجأة زارها.. ثم عاد الدنیء[2]

لابساً عاره دون أن تخجل الروح حين تباهى بعشق الخيانه

يا رفاقى اشهدوا أن روحاً جبانه

تشترى السلم بالذل كى تستقر على العرش فى كل يوم يجیء

امض نحو العدو الذى كم أسال دمانا بخبث وناج اليهود

وابتسم فى بلاهه

يا مريض الرؤى أنت تحتاج طول المدى للنقاهه

أيها المؤمن الزئبقى الودود!!

مؤمن أنت لكن بنهب قصور الملوك القدامى وغش التجاره

باستراحات عهر تشاد بلحم الحفاة الجياع

مؤمن بالخداع.. لذا ترتدى - كل يوم - قناع»[3].

إلى هذا الحد وصل ضيق الشاعر بهذا الحاكم (المفاوض) وحنقه عليه. ثم يعود الشاعر إلى ذمه وهجائه فى قصيدة أخرى:

---

(١) المصدر السابق - ص٢٨٩ .

(٢) يشتمل هذا الوصف على تجاوز لا يتناسب والنقد السليم .

(٣) السابق نفسه - ص٢٥٢، ٢٥٣ .

«قامر وجعجع بالسلام وبالحدائق مشرقه

وببسمة الطفل الكسير لأنه افتقد الحنان من الأبوة فى مجازر

لم تـــــدم إلا ..

لحين

كى يستقر على هواك الملك، قربك قطة مسعورة ومرابيه

تمشى على جثث الضحايا.

كى تجمع المال الحرام، تدسه فى جوف بنك صامت أو هاويه

وتلوح مثقلة بما يأتى من القدس الجريحة من زخارف أو هدايا

شهقت هدايا القدس فى أرجاء قصرك دهشة، فالقدس محتله[1].

هكذا تلوح صورة القدس المحتلة أمام مشهد الصلح مع إسرائيل؛ ليجدل الشاعر منها مشاعر الإحباط التى سيطرت عليه لخيبة الأمل فى تحقيق النتائج التى كانت يظنها قريبة المنال بعد تحقيق انتصار أكتوبر، ولكن لم يتحقق فعلياً شىء منها إن على أرض الواقع الداخلى، أو على أرض الواقع الإقليمى الخارجى.

وكأحد الجنود المقاتلين الذين شاركوا فى تحقيق نصر أكتوبر ١٩٧٣ يتقدم الشاعر (عصام الغازى) إلى حبيبته/ مصر بهذا التوسل المتلهف الضارع:

«أحبك.. لكننى لا أبالى

لقاء المنايا.. وغزو الشرر

سأزرع فوق تلالك عظمي

وأمسح عن مقلتيك السهر

وأترك جمجمتى فى ذراك

تعشش فيها صقور الظفر

أحبك هذا سلاحى بكفى

(١) المصدر السابق – ص٢٥٦ .

فلا تغمديه.. إذا ما انتصر!»[1].

لكن السلاح قد أغمد وأفسح المجال لعقد معاهدات الصلح مع العدو الإسرائيلى الذى أراق دماء أبناء الوطن الأبرياء الشرفاء، فكان ذلك مدعاة لمشاعر الإحباط التى أخذت تجتاح كيان هذا الشاعر الذى توحد مع صديقه الراحل الشاعر (أمل دنقل) بقوله:

«رأى جلده وريقات يحملها الأجنبى

عليها بنود (السلام)

والنهر سيف من الماء يركع»[2].

إن الشاعر (عصام الغازى) لا يغيب عن ذهنه أن يشير دائماً إلى التضحيات الجسام التى قدمها الشعب المصرى من أجل تحقيق الكرامة واسترداد الحقوق المغتصبة، كما لم يكن غائباً عن ذهنه التحذير من التداعيات الكارثية الخطيرة التى ستتركها معاهدة السلام هذه على كافة جبهات الصراع العربى الإسرائيلى:

«يغضب النهر.. فلا ينطق

تعصب الأرض الجبين بثوب «أوزوريس»

والميدان يركض

يمسح الأقدام بالعلم الغريب

يفجر «القدس» على كل الحناجر

يتقيأ ما بداخله من العار

على أسوار مبنى البرلمان!

«فى انحناء الشارع الشرقى

تمرق عربة سوداء

تحمل عاشقين تعانقا

(١) الجياد تموت واقفة – شعر عصام الغازى – ص١٤١ .

(٢) السابق نفسه– ص٢٨ .

خلف الزجاج

تدوس وجه (دلال)* مقتولا

فتكتسح البرودة أضلعى

والشارع الغربى يعزف لحنه المسعور»[1].

وبناء على هذا فإن عقد تلك المعاهدة ضياع للحقوق العربية وإجهاض لنصر أكتوبر الذى تغنى به الشاعر من قبل آملاً فى أن يكون طريقه إلى استعادة الكرامة واسترداد جميع الأراضى العربية التى اغتصبتها إسرائيل، ولذلك وجدنا هذا الشاعر الذى خاب أمله يصب جام غضبه على رأس السلطة التى تفاوض العدو الإسرائيلى بعد أن رمز له الشاعر (بأبى لؤلؤة المجوسى) قاتل سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ، والشاعر أهدى هذه القصيدة إلى «روح الثائر: جمال عبد الناصر»:

«(لؤلؤة) الأعمى

إنى ألعن يومى

حين وقفت أصلى خلفك

أو بجوارك

كان الليل طريقاً ممتداً

وأنا أحمل شوق الإنسان إلى العدل

وكانت أقدامى تهترئ شقوقا

يسكنها النمس

وتبحر فيها ريح الهول

وكان القلب مدينة حزن يتقاسمها السفهاء

سماسرة الحرب، وتجار الماء

وحملة أوسمة العهر،

* (دلال المغربى) فدائية فلسطينية استشهدت خلال عملية إنتحارية فى تل أبيب.

(١) السابق نفسه – ص٣٦- ٣٨.

وباعة لحم الوطن المهزوم

بغير حياء!»[1].

هكذا رأى الشاعر عقد تلك المعاهدة بمثابة مفارقة أبدية للكرامة العربية التى أهدرت على مدى سنوات طويلة؛ لذلك فإن شعوره بالإحباط من جراء تبنيه تلك الرؤية المتشائمة سيكون وقعه عليه حاداً ومضاعفاً؛ خاصة بعد أن تأكد إصرار الحكومة المصرية على المضى قدماً فى توقيع تلك المعاهدة:

«يا كل نساء القرن العشرين

أفرغن الآن الأرحام

حطمن سياج الحريه

كى تخرج عارية للريح

تمشى فى الأرض بلا تصريح

وتسافر تحت جلود الناس

وتحرك فيها الإحساس

....

يا كل الأطفال اعتصموا فى رحم القرن العشرين

الوطن اليوم يباع وتلقى كلمات التأبين

الوطن اليوم يباع فمن منكم قبل التثمين؟!»[2]

إن الوطن يباع فى عملية الصلح مع إسرائيل، والشاعر يرى أن ضريبة هذا التنازل ستتحمل أعباءها أجيال عربية لم تأت بعد؛ وذلك هو ما يفسر هذا التساؤل المر الذى وجهه الشاعر إلى أطفال العرب من الأجيال القادمة: (من منكم قبل التثمين؟).

إن هذا التساؤل يؤكد على رؤية الشاعر فى أن عملية الصلح عبارة عن مزاد يباع فيه الوطن – بكرامته وكل تضحيات أبنائه– علناً، تمهيداً للتخلى عن القضايا العربية كلية

(١) المصدر السابق نفسه– ص٥٦، ٥٧ .

(٢) المصدر السابق نفسه – ص١٠٣، ١٠٤ .

والانعزال عن روح المقاومة، ومن ثم بدا الشعور بالإحباط واضحاً على هذا الشاعر الذى خاب أمله وتبددت طموحاته مع تأكيد عقد معاهدة السلام مع إسرائيل فى (٢٦ مارس ١٩٧٩)، وهنا نلاحظ كلمات الشاعر تفقد كثافتها حتى تلاشت كما تلاشت من قبل آماله وطموحاته التى كان قد عقدها على تحقيق نصر أكتوبر:

«يغتالنى النهر المحنط

.. فوق ظهرى

ذلك السوط المحنط

والجياد تموت.. تنزف

الجياد تموت.. تحلم

الجياد تموت

ترجع

الجياد....»[١].

لقد أسلم الشاعر نفسه لهذا الشعور الساحق بالإحباط الذى يعتصره ويستنزفه، وقد اتضح ذلك من الطريقة الكتابية التى اعتمدها هذا الشاعر .

ويلاحظ أن الشاعر قد رمز بصورة (الجياد) إلى روح المقاومة التى وئدت واستنزفت بعد أن تم تسليمها إلى مقصلة معاهدة السلام مع إسرائيل التى كتمت أنفاسها وقضت على أى فعل إيجابى لها فتساوى بذلك فعلها مع عدمه.

(وقد أشار الشاعر أمل دنقل من قبل إلى المعنى نفسه حين استخدم للرمز صورة (الخيول) وأفرد قصيدة كاملة عنون لها بهذا الاسم)*.

كما انتقلت عدوى الشعور بالإحباط إلى شاعر متأخر زمنياً عن هذين الشاعرين، وهو الشاعر (السماح عبد الله)[٢]، الذى وجدناه ينظم – فى أواسط الثمانينيات–

---

(١) السابق – ص٣٨ .

* انظر الأعمال الكاملة – أمل دنقل – ٤١٧ .

(٢) (السماح عبد الله الأنور فواز) مواليد سوهاج ٥ فبراير ١٩٦٣ محرر أدبى بالمركز الإعلامى بهيئة الكتاب .

قصيدته «سلام»[1] التى جاءت على هذا النحو من الإحباط والتشاؤم واليأس:

«اليوم

،صالحت عدوى

أكلت من طعامه

وشربت،

ماءه،

،وأسندت إلى الجدار

بندقيتى،

وكنت كلما مررت فى الطريق فى رواحى،

، أو غدوى

ورأيت رايتى

كمزقة من القماش،

، ليس فيها نقط من دم أجدادى

وسمعت صوتى فى المدى

، أقوله

، ولا يدوى

ينكسر الهواء فى أصابعى

وينهض الملح الثقيل،

، فى فمى

وينكروننى

أبى،

(١) الرجل بالغليون فى مشهده الأخير – شعر – السماح عبد الله – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ٢٠٠٤ – ص٨١– يرجع كتابة هذه القصيدة إلى عام ١٩٨٦م.

، وأخوتى»[1].

إن هذه «القصيدة – وقد أوردناها كاملة* – تصور لحظة انكسار فادحة وهى لحظة الاستسلام والخضوع للعدو، وقد أخذ هذا الاستسلام صوراً عدة: الأكل من طعام العدو، الشرب من مائه، إلقاء السلاح (إسناد البندقية للحائط) سقوط الراية التى أصبحت كمزقة من القماش لا تزدان بنقط من دماء الشهداء من الأجداد، ضياع الصوت فى المدى دون أن يكون له دويه المألوف، كل هذه صور بائسة للاستسلام الذى يأخذ عنوان السلام»[2]. إنه الشعور الحاد بالإحباط الذى تولد لدى هذا الشاعر، وولد لديه تلك الصور المأساوية البائسة؛ خاصة بعد أن سيطرت عليه أحاسيس الخزى والعار، وتشبعت بها تماماً حواسه.

حاسة التذوق «أكلت، شربت، ينهض الملح فى فمى»

حاسة البصر «رأيت رايتى»

حاسة السمع «سمعت صوتى»

حاسة اللمس «ينكسر الهواء فى أصابعى».

وبذلك يكون الشعور بالإحباط قد احتل كيان هذا الشاعر بعد أن امتلأت به حواسه وجوارحه إلى الحد الذى أورثه مشاعر الضعف والانهزامية وانعدام الثقة بالنفس. وقد اتضح ذلك تماماً من صوت الشاعر الذى يطلقه فلايدوى، ومن أبيه وإخوته الذين أنكروه وتبرءوا منه.

وقد استخدم الشاعر (السماح عبد الله) «لإدانة الخضوع للعدو صيغة المضارع بما تفيده من تجدد وحيوية، فهذا الرفض متجدد أبداً، وهذه الإدانة للاستسلام مستمرة، فى حين استخدم فى تصويره لمظاهر الخضوع الفعل الماضى بكل ما يوحى به من ركود وجمود»[3].

(١) المصدر السابق – ص٨٣– ٨٥ .

* الكلام للدكتور على عشرى زايد الذى قدم لهذا الديوان .

(٢) المصدر السابق نفسه – ص١٧ .

(٣) المصدر السابق – ص١٨ من مقدمة د/ على عشرى زايد .

وأنا أرى أن استعمال الشاعر الأفعال الماضية والمضارعة قد جرى على حقيقته دون أى تحميل رمزى؛ فالشاعر يشير بالزمن الماضى إلى وقائع الأحداث كما جرت فى الواقع؛ فالقصيدة تنتمى إلى فتر زمنية متأخرة بسنوات طويلة عن عقد معاهدة السلام التى أبرمت فى عام ١٩٧٩ بينما يرجع تاريخ كتابة قصيدة الشاعر إلى عام ١٩٨٦م.

كما أن استخدام الشاعر للأفعال المضارعة أمر قد تم بما يتوافق مع طبيعة مجريات الأحداث؛ وبالتالى فهى تنتمى إلى الحقبة الزمنية المتوائمة معها؛ فالتنازلات ومؤتمرات الاستسلام ما زالت مستمرة. ومما يدعم ما ذهبت إليه أننا إن أردنا تبديل مواقع صيغ المضى مع المضارعة لما استقام الأمر.

فهل يصح أن يقول الشاعر مثلاً: «اليوم سأصالح عدوى» بينما يتنمى الحدث إلى واقعة تاريخية سابقة على نظم تلك القصيدة، فيكون التأويل الصحيح على هذا النحو (قد كان أن جاء هذا اليوم الذى فيه صالحت عدوى) من أجل ذلك أرى استخدام الشاعر لأفعال المضى أو المضارعة استخداماً حقيقياً ولا حاجة للزج بهما فى تأويل قد يتناسب مع وجهة نظرية لكنه فى الوقت ذاته يتنافى مع واقعية النص الذى قد يحمله هذا التأويل أكثر مما يحتمل.

وعودة إلى الشعور بالإحباط الذى تسرب إلى شاعرنا (السماح عبد الله) من جراء عقد معاهدة السلام مع إسرائيل؛ حيث وجد هذا الشاعر نفسه فى مواجهة مباشرة مع «أبطال السير الشعبية: أبى زيد الهلالى، وعنترة بن شداد، وحمزة البهلوان، وسيف بن ذى يزن وغيرهم، إنهم يملكون أسلحتهم: سيوفهم، ونشيدهم، أما هو فلا سلاح له سوى ربابته»[1]:

«هذا أنا،

، وهذه ربابتى

، وأنتم على مصطبتى

معى أبو زيد وعنترة وحمزة وابن ذى،

، يزن

، وغيرهم

(١) المصدر السابق نفسه – ص١٤ .

والعبد أطلق بوقه فجأة

والطارق الغجرى خبط فوق مطرقة،

، النحاس

فأتوا سراعاً

، للميادين الوسيعة فى دمى

، بسيوفهم

، ونشيلهم

، ونسائهم»[1].

يلاحظ أن الشاعر يكثر من استخدام الفاصلة (،) التى تقع بين طيات الكلام، لكن الشاعر هنا يتعمد استخدامها كثيراً فى أوائل الأسطر الشعرية، ويضعها بين المضاف والمضاف إليه مثل «وابن ذى، يزن» و«فوق مطرقة، النحاس) وهذه تجاوزات كتابية غير مألوفة، وغير صحيحة. ويبدو أن الشاعر جاء بهذه الفواصل المبعثرة على هذا النحو من الغرابة والشذوذ؛ ليرمز بتلك الطريقة الكتابية الغريبة الشاذة إلى واقع متناقض غريب يستحق التعبير عنه على هذا النحو من الغرابة والشذوذ.

كما يلاحظ أيضاً أن الشاعر – مع افتتاح قصيدته – لم يكتف باستخدامه لتلك الفاصلة؛ لتقوم بدور العازل بينه وبين ربابته، ولكنه استخدم أيضاً حرف العطف (الواو) (هذا أنا، وهذه ربابتى) «فحرف العطف هنا إنما يعطف ذاتاً على ذات ولا يوحد، ووجوده يؤكد استقلال كل ذات عن الأخرى»[2]، يؤكد تلك الاستقلالية والانعزال مجئ كل عبارة من العبارتين فى سطر شعرى كامل خاص بها.

وهكذا اتضح أن الشاعر يحاول أن يشير بكل الوسائل والطرق إلى انعزاله ليس عن ربابته – التى هى فى متناول يده بالفعل، بل عما تعنيه وترمز إليه تلك الربابة التى حملت فى نبرات أوتارها عبق بطولات هؤلاء الأبطال العرب وغيرهم ممن دارت حول بطولاتهم الأساطير، وحيكت النوادر من شجاعتهم ونخوتهم وصحة إقدامهم.

---

(١) السابق نفسه – ص٧٣، ٧٤ .

(٢) مملكة أحمد عبد العاطى حجازى الشعرية – تحرير وتقديم – حسن طلب – ص٤٥١ .

ولعل هول الفارق الشاسع بين ما اتسم به هؤلاء الأبطال العرب فى الماضى من عزة ونخوة وشجاعة، وبين ما صار إليه الحال من ضعف وتخاذل واستسلام دفع الشاعر إلى مهاوى هذا التساؤل المحبط:

«، ماذا سأفعل يا ندامى؟

، ونذير الحرب معقود على سقف السماء

، كصرخة

، الحدأة

وتر الربابة

، صاخب بصليلهم

ودمى تنقط بالدم المنزوف من قتلاهم

، وأنا

، أسير اللحن

، مشدود

، إلى نبضاته المجنونة الإيقاع

، مجذوب

، إلى جسد تداعى فى

، مواجهة ابن ذى يزن

، وندبة امرأة

لكن حنجرتى مشرخة

والعين

، داهمها النعاس»[1].

إن الفاصلة (،) تتكرر بين الجار والمجرور (فى، مواجهة) بل إن الأمر قد يصل

---

(١) الرجل بالغليون فى مشهده الأخير – شعر – السماح عبد الله – ص٧٤- ٧٦.

بالشاعر إلى أن يضعها بين المضاف والمضاف إليه «كصرخة، الحدأة».

إن هذا الشاعر كان يدرك تماماً أنه لا يملك أي رد فعلى على عقد تلك المعاهدة مع إسرائيل. لذلك نفس عن ضيقه وإحباطه عن طريق كسر الأعراف الكتابية المألوفة فهذا هو الفعل الذى يقدر على فعله بعد أن سلب أى فعل، أو أية إرادة يواجه بها ما حدث.

ولذلك كان الشعور بالإحباط حليفاً لهذا الشاعر الذى أعجزه هذا التناقض الذى راح يشتعل بداخله حتى عن مجرد الحكى والكلام؛ فحنجرته قد صارت مشرخة، وعينه داهمها النعاس. لا نعثر هنا على أى أثر لأى رفض أو أى مقاومة تذكر لهذا الشاعر الذى بدا متشائماً محبطاً حتى النهاية.

وذلك خلافاً لما ذهب إليه د/ على عشرى زايد الذى رأى أنه على الرغم من أن الشاعر قد صارت «حنجرته مشرخة والعين داهمها النعاس. ومع ذلك فهو يقاوم الظروف التى تحاصره بمواتها وخمودها ويشاكسها ويرفض أن ينكسر أمامها أو يخضع، ولكننا لا نعدم أن نلمح بين الفينة والفينة لحظات انكسار عابرة، وظلال إحباطية كابية تظلل آفاق رؤيته»[(1)].

لكنى لا ألمح فى تلك القصيدة سوى حالات الانكسار، ومشاعر الإحباط الطاحنة التى غلفت القصيدة من ألفها إلى يائها، وظللت رؤية الشاعر بتلك الغلالة التشاؤمية الجاثمة التى لم تترك أى مجال لظهور تلك الروح المقاومة المشاكسة التى تحدث عنه الدكتور (على عشرى زايد).

وقبل أن أنهى هذا الرافد للشعور بالإحباط عند هذا الشاعر أؤكد على أن عدم ظهور مفردات ووقائع تدل مباشرة على معاهدة السلام مع إسرائيل يرجع إلى أن تلك القصيدة والقصيدة السابقة تنتميان إلى فترة زمنية متأخرة بسنوات عن توقيع تلك المعاهدة. لذلك فإن تمثل الشاعر روح تلك الواقعة سيكون هو الأقرب من تصوير مفرداتها وأحداثها الواقعية كما وردت عند شعراء آخرين عاينوها وتفاعلوا مع أحداثها أولاً بأول. ولكننا لم نحس مطلقاً بخفوت نبرة الشعور بالإحباط التى علت دقاتها بداخل

(١) المصدر السابق نفسه – ص ١٤ .

هذا الشاعر الذى فطن إلى مساوئ مصالحة العدو بعد سنوات طويلة من الكفاح وإراقة الدماء الطاهرة البريئة. إنها معاهدة لم تستند إلى مبادئ الكرامة والحرية بقدر ما استندت إلى التخاذل والاستسلام.

ويكفى أن هذه الاتفاقية قد «أحدثت شرخاً فى صف الدول العربية المعارضة لإسرائيل وأمريكا، وقد بذلت السياسة الأمريكية والصهيونية مساعيهما لتوسيع هذا الشرخ»[1]، فإسرائيل لم تكن «ترغب فى التسوية الشاملة، لكنها كانت تميل إلى الاتفاقيات المنفردة على حساب المصالح الوطنية للبلدان العربية. ونجحت السياسة الأمريكية والصهيونية فى إقناع السادات بالصلح المنفرد حتى تكون مصر بعيدة عن النضال العربى المشترك، وتستطيع عن طريق هذه السياسة أن توجه ضربة للدول العربية المعادية للامبريالية الأمريكية، وأن تضعف مقاومتهم لأعمال إسرائيل التخريبية والتوسعية»[2] لذلك يمكن اعتبار تلك الاتفاقية «البداية الحقيقية لانكسار وتمزيق الصف العربى ولضياع قيمة الدم العربى بضياع الأرض»[3].

وبذلك تكون هزيمة يونية ١٩٦٧ قد «تحولت إلى نصر على حين أن النصر تحول إلى هزيمة وانكسار وتمزيق للجسد العربى»[4].



(١) الدم وثنائية الدلالة – د/ مراد عبد الرحمن مبروك – ص٢٨٦ .

(٢) المرجع السابق- ص٣٤ .

(٣) السابق نفسه – ص٩ .

(٤) السابق نفسه- ص٣٧ .



الفصل الرابع

تمزق العرب وتشرذمهم



طالما كان العرب- ولا يزالون - طرفاً مفعولاً به سلبياً وفق نظرية المؤامرات الغربية. ولكن الأدهى والأمر أن العرب ظلوا يستمرئون القيام بدور الضحية، ويتفننون فى إظهار مدى عجزهم وقصور همتهم عن القيام بمشاركة فعلية فى تحريك ودفع الأحداث التى لم تتجه قط تجاه مصالحهم.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن محاولات الاستعمار الغربى لتمزيق وتفتيت الوطن العربى وتقطيع أوصاله حتى يتحول إلى لقيمات سائغة يسهل هضمها كانت قد بدأت منذ عقود طويلة؛ خاصة مع انهيار الامبراطورية العثمانية وهزيمته فى الحرب العالمية الأولى؛ حيث كانت الدول الاستعمارية الغربية ممثلة فى (إنجلترا وفرنسا) - بعد انسحاب روسيا من الحرب بعد قيام الثورة البلشفية سنة ١٩١٧ - بصدد وضع اتفاقية «(سايكس - بيكو (١٩١٦)»؛ لتقسيم غنائم الحرب فيما بينها، خاصة فيما يتعلق منها بأملاك الإمبراطورية العثمانية، والتى كان من بينها - بالطبع - الدول العربية؛ ليكتشف العرب الخدعة الكبرى التى تعرضوا لها بعد أن اكتشفوا أن أراضيهم قد تحولت إلى مستعمرات غربية كان النصيب الأكبر منها لبريطانيا وفرنسا.

هذا، وقد عمد هؤلاء المستعمرون إلى تقطيع الوطن العربى بصورة ممنهجة يصعب معها قيام كيان عربى متحد ومستقل؛ للقضاء على فكرة الوحدة والقومية العربية .

وذلك عبر ابتداع هذا النظام الاستعمارى لمجموعة من الإجراءات تمثل أهمها فى:

١- «قسم الاستعمار الوطن العربى إلى أجزاء منفصلة، وأقام الحواجز الجمركية بين هذه الأجزاء فقضى على حرية الانتقال، وحرية الاتصال بين العرب».

٢- «وأثار الاستعمار النعرات المحلية للقضاء على فكرة الوحدة والقومية العربية، فأثار النزعة الفرعونية فى مصر، والنزعة الفينيقية فى لبنان، وسمى العرب بأسماء مختلفة فى الأجزاء المختلفة، فهم عراقيون وسوريون ولبنانيون وفلسطينيون وسودانيون».

٣- «خلق الجنسيات المتعددة من الجنسية العربية الواحدة بل عمل أحياناً على إخراج بعض الشعوب العربية عن إطار القومية، فعمل على فرنسة الجزائر، وادعى أنها جزء من الوطن الفرنسى، وشجع الجزائرين على اكتساب الجنسية

الفرنسية عن طريق التلويح بالامتيازات الاجتماعية والطبقية» .

٤- «أثار الاستعمار روح العداء الطائفى بين الأديان والمذاهب فى الوطن العربى، فعمل على التفريق بين الدروز والموارنة فى لبنان، وبين المسلمين والأقباط فى مصر، وبين الشيعة والسنيين فى العراق»[(١)].

٥- «عمل الاستعمار على تعدد النظم السياسية والحكومية والاقتصادية، وتعدد القوانين فى الأقطار العربية»[(٢)].

٦- «كما خلق الاستعمار أسر ذات أطماع فى الحكم وألهاها بعروش وهمية، وبذلك أوجد مصالح أسرية وعصبيات سببت نوعاً من التفكك فى وحدة العرب، وشجعت النزعات العصبية والتنافس المحلى»[(٣)].

والحق أن هذا الاستعمار الغربى قد نجح فى إحداث الفرقة والتشرذم بين أبناء الوطن العربى إلى حد بعيد؛ فحتى بعد زوال الاستعمار، وحصول العديد من الدول العربية على استقلالها – خاصة خلال النصف الثانى من القرن العشرين- لم تتمكن تلك الدول من التخلص من آثار هذه المؤامرات التى حيكت لهم منذ عهد بعيد. وليس أدل على ذلك من أنه إلى الآن- وعلى الرغم من كل النداءات المخلصة التى كانت تدعو بإلحاح إلى ضرورة الوحدة بين أطراف الوطن العربى الواحد- لم تنجح أى دولة عربية فى عقد وحدة متزنة دائمة مع دولة عربية أخرى اللهم إلى بعض اتفاقيات صورية، ومواقف آنية لا تعنى فى أساسها الكثير.

وهذا يعنى أن تقسيم الوطن العربى لم يتكرس على المستوى الجغرافى فقط ولكنه امتد كذلك إلى أذهان معظم الحكام العرب، وكثير من عامة أبناء الوطن العربى كذلك .

وقد ظهرت صور هذا الانقسام، وآثاره إلى ذروتها خلال النصف الثانى من القرن العشرين. وقد تمثل ذلك فى مجموعة من المنازعات والخلافات التى وصلت فى كثير من الأحيان إلى حد الاقتتال والحروب بين أبناء الوطن العربى الواحد. ولعل من أبرز

---

(١) التاريخ للثانوية العامة – حقوق الطبع محفوظة للوزارة – طبعة ٢٠٠٠- ٢٠٠١- ص٢٢٦.

(٢) المرجع السابق نفسه – الصفحة نفسها .

(٣) المرجع السابق نفسه – ص٢٢٧ .

تلك الأحداث أحداث أيلول الأسود الذى وجهت فيه القوات المسلحة الأردنية نيرانها إلى المقاومة الفلسطينية عام ١٩٧٠م، والحرب الأهلية اللبنانية عام ١٩٧٥، وغير ذلك من الأحداث المأساوية الخطيرة التى توجت فى النهاية باجتياح العراق للكويت عام ١٩٩٠. وهى الحرب التى تركت آثارها الفادحة على أرجاء الوطن العربى كافة .

وما من شك فى أن اختلاف العرب، وتنازعهم على هذا النحو قد أضعف من موقفهم كثيراً فى المطالبة بحقوقهم المشروعة، واسترداد أرضهم المغتصبة؛ ولذلك فقد رأى الكثير من الشعراء المصريين المعاصرين أن تشتت الموقف العربى، وتمزقه يعد تضييعاً مباشراً للحقوق العربية، وفقداناً للأمل فى إحداث أى إنجازات مرتقبة على أرض الواقع. ومن الطبيعى أن يخلق هذا التصور لدى هؤلاء الشعراء الشعور بالإحباط، وأن يتسرب هذا الشعور إلى نفوسهم، ويسرى فى قصائدهم حاداً وطاغياً .

وقد كان الشاعر (محمد التهامى) أحد أهم الشعراء الذين آمنوا بضرورة تحقيق الوحدة العربية، وقد صاغ قصائد عديدة تغنى فيها بالأمل فى تلك الوحدة، داعياً إلى ضرورة التكاتف والتساند والتعاون بين أبناء الوطن العربى، وقد ساق من الحجج ما يؤدى فى النهاية إلى تحقيق تلك الوحدة، ومحذراً فى الوقت ذاته من مغبة التشرذم والاختلاف الذى لن يجنى منه العرب غير الضعف والذلة والهوان.

والأمثلة التى تبرهن على ذلك من شعر هذا الشاعر عديدة ومتنوعة منها – على سبيل المثال لا الحصر – قوله:

«هذا السبيل إلى الخلاص لأمة ... لا شىء ينقذها بدون الوحدة
يا ويل من خانوا ومن قد هادنوا ... والواقفين على دروب الحيرة
هذا التمزق قد أضاع شعوبهم ... فى عالم لا وزن فيه لقلة
سيسوقهم سوق الغبار أمامه ... حتى يواريهم هناك بحفرة
ويسجل التاريخ عن أوطانهم ... فيقول: قد كانوا هناك وكانت»[1]

وفى ثنايا ذلك لا ينسى الشاعر أن يشير إلى المكائد والدسائس التى تحاك لإعاقة تحقيق الوحدة بين العرب:

(١) الأعمال الشعرية الكاملة – محمد التهامى – ١/ ٣٢١ الهيئة المصرية العامة للكتاب – ٢٠٠١ .

«نحن العشيرة قد عزت وشائجنا ... طول الزمان وعشنا الدهر جيرانا
يا إخوة العرب، قالوا: إننا دول ... ونحن قد صاغنا الرحمن إخوانا
قالوا: الحدود على الآفاق تفصلنا ... يا إخوة النيل.. ليت الحد ما كانا
قالوا: الأصول، فقلت: القربة اكتملت ... فسائلوا العرب.. عدناناً وغسانا
يا إخوة القلب جدوا فى تحالفكم ... وأيدوه ويكفى القلب ما عانى
مدوا إلينا يديكم وهى حانية ... إنا بسطنا قلوباً من حنايانا
ضموا القلوب على حق ومصلحة ... وضاعفوها بين الإيمان إيمانا
بين الفرات وبين النيل رابطة ... يوصى الحجاز بها فى الحب لبنانا
فوحدوها صفوفاً وارفعوا علماً ... بين الأهلة فيه ضم صلبانا»[1]

هكذا ينفذ الشاعر من تفنيده المزاعم والافتراءات التى روجها مثبطو الهمم، ومعارضو تلك الوحدة إلى دعوته المتلهفة؛ لتحقيق الوحدة بين الدول العربية التى يوجد بينها من المصالح، ومن الوشائج المشتبكة ما هو أعمق بكثير مما يوجد بينها من التعارض والاختلاف. لذلك كان من المبرر أن يدعو الشاعر بكل صدق وعزيمة هؤلاء العرب إلى الاعتصام بحبل الله، وعدم التفرق شيعاً متباعدة؛ حتى يستحقوا نصره وتأييده- عز وجل-:

«فتوحدوا فى الله يحمى صفكم ... ويرد عنكم صولة المستبعد
ولا ترهبوا أعوانه وسلاحه ... مهما أتى من مبرق أو مرعد
فالله فوق العالمين جلاله ... سبحانه من قاهر متفرد
يحمى العباد إذا توحد جمعهم ... فى عصبة ويد تشد على يد»[2]

إن هذا الشاعر لا يمل من تبيان الروابط المشتركة التى تجمع بين دول الوطن العربى الواحد، وهو ما يمكنها من تخطى كل العوائق والسدود التى تقف فى سبيل تحقيق الوحدة والتكاتف فيما بينها:

«بنى العروبة نحن الكل وحدنا ... ماض عزيز ويوم حافل وغد

(١) السابق – ص٤٣٣، ٤٣٤.

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة- محمد التهامى- ٢/ ٥٢٤ -الهيئة المصرية العامة للكتاب – ٢٠٠١.

«بغداد» إن مسها وجد وأرقها ... فنحن الألى نشقى بها تجد
«عمان» إن عز فيها بعض ما طلبت ... فمن عزيز دمانا الغوث والمدد
وتلك «تونس» نادت فاستجيب لها ... يفديك «تونس» منا المال والولد»
- «وفى «الجزائر» أشلاء لنا شهدت ... هل بعد قول شهيد الحق من شهدوا
إنا بنى العرب أقصانا وأقربنا ... كل لكل على أحداثها سند
هل بعد هذا عن التوحيد يصرفنا ... دس يسير به فى القوم من فسدوا؟[1]

ولكن يبدو أن هؤلاء المفسدين سوف تسرى دسائسهم ومكائدهم مسرى النار فى الهشيم، وسيجدون لهم فى جسد الأمة العربية مرتعاً خصباً، ومجالاً واسعاً؛ لإحداث الفرقة والتشرذم والاختلاف فيما بينهم؛ يدل على ذلك هذه القصيدة نفسها – سالفة الذكر – التى صاغها الشاعر قبيل وقوع الانفصال بين (مصر وسوريا) عام ١٩٦١. وكأن الشاعر كان يتنبأ بوقوع هذا الانفصال الذى استبقه الشاعر بالتحذير منه؛ ولذلك يعلق على عنوان تلك القصيدة بقوله- نثراً-: «ألقيت فى مهرجان الشعر الثالث بدمشق فى سبتمبر ١٩٦١ بعد معارضة شديدة من لجنة المهرجان والإصرار على تعديل بعض أبياتها وتأجيلها إلى آخر يوم فى المهرجان، بسبب أنها كانت تتنبأ بالانفصال الذى وقع بعد المهرجان مباشرة»[2].

وقد جاء فى هذه القصيدة أبيات شعرية تحمل هذا التحذير:

-«قل للذى عن ظلال الأهل يبتعد ... باب العروبة مفتوح لمن يفد»
- «فلا تطيعوا الألى ضلت مقاصدهم ... ولا تطيعوا الألى تشقيهم العقد
ولا تطيعوا الألى باعوا نفوسهم ... ولا تطيعوا الأولى من جهلهم حقدوا
ولا تطيعوا الألى أهواؤهم حكمت ... فسايروها ولو يستعمر البلد
عودوا إلى عمق الأعماق فى دمكم ... تلقوا عروبتكم فى الدم تتقد»[3]

ويعضد الشاعر تحذيراته تلك بذكره فلسطين؛ شاهد عيان تشهد بخطورة

(١) الأعمال الشعرية الكاملة – محمد التهامى ١/ ٣٤٤، ٣٤٥.
(٢) المصدر السابق – هامش الصفحة – رقم ٣٤٢.
(٣) المصدر السابق – ص٣٤٢، ٣٤٤.

الأوضاع التى ترتبت على تفرق العرب، وعدم توحيد صفوفهم، وتنظيم جهودهم:

«لـو يشـعرون بـما جرتـه فـرقتهم؟ لـو يشـعرون لـما قـرت لهـم كبـد
لو يـذكرون «فلسطين» التـى ذهبـت؟ لـو يـذكرون لـولى الصـبر والجلـد
الأهـل فى دارهـم بـاتوا علـى دعـة وأصـبح الصـبح لا أهـل ولا بلـد
المـوت والـذل والحرمـان طـاردهم سيان مـن مـات منهم والألى طـردوا
بـل كـان فى المـوت إنقـاذ لـوجههم وعاصـم لهـم مـن هـول مـا شـهدوا
بعـد النعـيم وعـز العـيش قـد طلبـوا ذل الكفاف وحتـى ذاك مـا وجـدوا»[1]

لكن نداءات الشاعر المتلهفة، ودعواته المستميتة، وتحذيراته المتواترة كلها لم تجد نفعاً؛ فقد تم الانفصال بين (مصر وسوريا)، وقد «أوقع هذا الانفصال فى نفوس العرب، لا فى مصر وسوريا وحدهما، بل فى الوطن العربى كله، أوقع ألماً ومرارة لا حد لهما، بل أحدث نوعاً من التخلخل والفراغ النفسى القاتل»[2].

لذلك كان من الطبعى أن يتسرب الشعور بالإحباط إلى نفس هذا الشاعر، وخاصة بعد أن رأى نفسه هو وغيره من أبناء العرب الذين آمنوا دائماً بضرورة تحقيق الوحدة بين العرب – فى وضع مكشوف للعدو يستطيع أن ينفذ منه من أى اتجاه، وفى أى وقت شاء؛ للعبث بأمن الشعوب العربية، ومقدراتها. يقول الشاعر فى قصيدته: «عار الانفصال سنة ١٩٦١»-:

«يـا ويلهـم خنقـوا ضـياء حياتنـا فهـوت إلـى جـوف الـتراب الأنجـم
هـزوا جـدار العـرب خلـف ظهورنـا فـإذا بحصـن الآمنـين يهـدم
كشـفوا غطـاء الأمـن فـوق سـمائنا فتمكنـت منـا النسـور الحـوم
قـد صـيرونا للأعـادى مضـغة تجـرى بأنيـاب الـذئاب وتهضـم
وبـدت مخازينـا تفـزع يومنـا وبلادنـا بـين الغنـائم تقسـم
كتبـوا بتـاريخ العروبـة لعنـة يرمى بها الجيـل التعـيس ويوصـم»[3]

(١) المصدر السابق نفسه – ص٣٤٥، ٣٤٦ .
(٢) الشعر فى إطار العصر الثورى – د/ عز الدين إسماعيل – ص٧٢ .
(٣) الأعمال الشعرية الكاملة – محمد التهامى – ١/ ٣٥٠ .

إنه الشعور بالإحباط قد بدأ يظهر على هذا الشاعر الذى رأى هذا الوضع العربى المتردى المهترئ يبرز مخازى عديدة ستمتد آثارها الفاجعة إلى جيله والأجيال القادمة من أبناء العرب الذين سيعجزون عن تفسير ما الـذى أوصل أمتهم إلى هـذا الحد من التردى والضعف؟ يقول:

«بتنا نعيش حكاية لو صاغها التاريخ   عن أيامنا لا تفهم...
ماذا يقول إذا انطوت صفحاتنا   وتتابعت أجيالنا تستفهم
أتراه يرحمنا ويغفر عارنا   ويرق لما عذرنا يتكلم؟
أم إنه الحق الـذى ناموسه   إن الحقيقة مرها لا يرحم
أيقول: كنا فى كريم ديارنا   والخير يجرى تحتنا لا نطعم؟
أيقول: كنا نستسيغ حياتنا   والعيش فى فمنا هنالك علقم؟
أيقول: كنا لا نحرك ساكناً   والحق فى يدنا يسام ويهضم؟
أيقول: كنا فى الحشود كثيرة   وأمام أجبن كل خلق نهزم؟
أيقول: هانت أرضنا فإذا بها   للتائهين بكل أرض مغنم؟
أيقول: إنا قد تركنا أرضنا   تبكى جحود الهاربين وتلطم؟»
- «إنا نعيش مرارة لو ذاقها   جبل فإن صخوره تتحطم
نشقى بها، ياليتنا من مرها   والهول فى تعذيبها نتعلم»[1]

ولكن العرب لم يتعلموا من أخطائهم؛ فقد توالت الخلافات التى بثت روح الفرقة والتشرذم بين الدول العربية. وهو ما ألجأ الشاعر المحبط إلى مجموعة من التساؤلات التى يحار هو الآخر فى تبرير أسبابها التى استعصت على التحليل أو الفهم:

«ماذا أقول إذا ما قام يسألنى   هذا البرىء، ويعلو بيننا الجدل؟
ولا يدير لسانى فى تلعثمه   شيئاً يفيد، وقد أعيتنى الحيل
أأدعى: أننى والحرب فى وطنى   ما كان لى ناقة فيها ولا جمل؟
أأدعى: أننى والناس فى بلدى   كنا حيارى، وقد ضلت بنا السبل؟
أم أدعى: أننا والأمر فى يدنا   حقا غفلنا، وويل للألى غفلوا؟

(١) المصدر السابق – ص٣٥١، ٣٥٢.

أم أدعـى: أننـا والنـار عالقـة بالـدار | كنـا بصـحن الـدار نقتتـل؟»[1]

حددت تساؤلات الشاعر مواطن الداء؛ فالاقتتال الداخلى، والمنازعات التى تنشب من حين لآخر بين أبناء الوطن العربى تؤدى إلى إضعاف الصف العربى. وهو ما يؤدى إلى ضياع الحقوق، وذهابها إلى غير عودة طالما ظل حال العرب على هذا النحو من التشرذم والاختلاف. وهو الأمر الذى سيؤدى إلى فتح الباب على مصراعيه لاجتراء العدو على أراضى العرب واغتصابها من بين أيديهم قطعة قطعة:

«قد عربد الطوفان فوق جدارنا | وأتى يفزعنا بشر محدق
يجتاح جدران العروبة كلها | ويعمم الطوفان غير مفرق
إن ضاع منا اليوم شبر واحد | فغدا يضيع من العروبة ما بقى»[2]

ولكن تحذيرات الشاعر، ونداءاته كانت تذهب أدراج الرياح بلا صدى، فما من مجيب أو معتبر بين هؤلاء العرب المتنازعين المتناحرين فيما بينهم. لذا أعلن الشاعر عن شعوره بالإحباط لما آلت إليه أحوال هؤلاء المسئولين من حكام العرب الذين انحدروا بحال الأمة العربية إلى هذا الدرك المتردى الذى أورث أجيال العرب القائمة وسيورث أجيالهم الآتية الخزى والمهانة. وهى أحاسيس ستولد بالضرورة رؤية ضبابية قاتمة يغلفها شعور تام باليأس والإحباط، وتفتقد بالأساس إلى أى بارقة أمل:

«وإن تنادى ذوو الأرحام تمطرهم | فى زحمة الإفك من قاموسنا علل
إن جاء أعداؤنا بالنار تأكلنا | رحنا نضيف إليها وهى تشتعل
هم يأكلون حمانا فى مخططهم | ونحن نشوى لهم كل الذى أكلوا
ننقب الأرض عن عار يجللنا | ويدعى البعض منا أنها حلل
هذى الحقيقة، لا زيف يغلفها | ولا رياء ولا مين ولا دجل
هذى الحقيقة، يا للعار وصمتها | حطت على جيل، طوبى للألى رحلوا
خلوا لنا العار، نسقاه ولا ظمأ | ونتقيه ولا يبدو لنا أمل»[3]

(١) المصدر السابق نفسه- ص٤٥٠، ٤٥١ .
(٢) السابق نفسه- ص٣٦٠.
(٣) السابق- ص٤٥١.

إن هذا الشعور الحاد بالإحباط حطم قلب هذا الشاعر، ووأد أحلامه وطموحاته؛ لأن الأمر لم يقف بالعرب عند الاختلافات والتنازعات الداخلية المحدودة، بل تجاوز ذلك كله إلى حد نشوب حرب مفتوحة اجتاح فيها بلد عربي مسلم (دولة العراق) بلداً عربياً مسلماً مجاوراً له (دولة الكويت). وهو ما عرف بـ «حرب الخليج الأولى» التي وقعت عام ١٩٩٠م.

وهنا وجدنا هذا الشاعر يفرد ديواناً كاملاً[1] لرصد أبعاد تلك الحرب، وآثارها الكارثية الخطيرة التي غذتها أحداث لاحقة لم تترك للشاعر وغيره من أبناء العرب المخلصين غير مشاعر اليأس والإحباط.

وفي هذا الديوان قصيدة بعنوان «بقايا العروبة» وقد عقب الشاعر على هذا العنوان بقوله: (بعد انفصال ١٩٦١ والتهام ١٩٩٠)، وقد جاءت متفقة تماماً في مطلعها وفي معظم أبياتها كذلك مع قصيدته (عار الانفصال سنة ١٩٦١). وكأننا بالشاعر يريد أن يجدل من كلتا القصيدتين، ومن الفراغ الزمني الواقع بينهما معادلته التي تفترض وجود علاقة وطيدة بين حالة الانفصال والتفرق- التي حذر منها من قبل- وبين ما نتج عن تلك الحالة من نتائج مأساوية خطيرة.

ولكن يلاحظ أنه على الرغم من اتفاق القصيدتين في المطلع ومعظم الأبيات إلا إن الشاعر قد انحرف بتساؤلاته هنا؛ ليضيف أسئلة أخرى إلى التساؤلات التي توجه بها إلى العرب منذ حوالي ثلاثين عاماً؛ فالأحداث المعاصرة التي جدت، والرؤى المعتمة التي كشفت عنها هذه الحرب العبثية تتطلب من الشاعر أن يسوق بعض التساؤلات المستحدثة التي تتناسب مع حجم الكارثة التي حلت في تسعينيات القرن العشرين؛ فاحتاجت بالضرورة إلى صياغة جديدة:

«أيقول: كنا إن كسبنا قوة ... نعمى، فنرمي من ندافع عنهم؟
وإذا ملكنا النار، ضل لهيبها ... فارتد في أثوابنا يتضرم؟
ونمزق الأرحام من أوصالها ... فكأن لا دين هناك ولا دم؟
نغزو أهالينا، ونذبح إخوة ... منا، ومن لحم الأشقة نطعم

(١) الديوان يحمل عنوان دماء العروبة على جدران الكويت- الأعمال الكاملة- ١/ ٤٨٣.

نلقـــى لعاصـــينا زمـــام أمورنـــا ... ولـــدى محاريـــب القداســـة نـــأتم

فمـــن احتمـــى بجوارنـــا نغتالـــه ... ومـــن اطمـــأن لعهـــدنا لا يـــرحم

ســقنا علـــى أرض «الكويـــت» مآتمـاً ... خزيـــت لهـــا فـــوق الســماء الأنجـــم

حتـــى شـــكت أرض لنـــا وتفجـــرت ... تبكـــى مـــن العـــار الأثـــيم وتلطـــم»[1]

ثم يكمل الشاعر قصيدته على نسق قصيدته السابقة (عار الانفصال سنة ١٩٦١) دون أى اختلاف أو تغيير.

ولكن تلك الحالة المأساوية الخطيرة أدت بهذا الشاعر إلى الذهول من هول ما جرى، وما ترتب عليه من آثار مدمرة.

وهو ما دعاه إلى إنشاء قصيدة أخرى ينفس فيها عن مواجعه، فعمد إلى حشد من التساؤلات التى تكشف عن عمق مأساته وجراحه:

«نـــدعوا ونســـأل كـــل شـــىء حولنـــا ... مـــاذا؟ وكيـــف؟ ومـــا جـــرى؟ وإلا مـــا؟

ونحـــار بـــين ســـؤالنا وجوابـــه ... إن الجـــواب يزيـــده إبهامـــا

مـــا كـــان.. عـــز علـــى مـــدى إدراكنـــا ... فـــاق الـــرؤى والفكـــر والأوهامـــا

مـــن كـــان يحســـب أننـــا بعشـــيرة ... لا تـــرحم الأخـــوال والأعمامـــا؟

مـــن كـــان يحســـب أن فى أثوابنـــا ... وحشـــا يخـــون ولا يصـــون ذمامـــاً»؟[2]

وفى هذا الإطار لا يفوت الشاعر أن يشير إلى النوايا الخبيثة التى أذكت نيران هذه الحرب العبثية التى أشعلتها أطماع وأحقاد أمدتها بكل أسباب الاضطرام:

«لم تشـــهد الـــدنيا حريقـــاً مثلـــه ... مـــن حولـــه كـــل الأنـــام تزاحمـــوا

كـــل رمـــى فى النـــار مـــن أطماعـــه ... حطبـــا يزيـــد بـــه اللهيـــب ويعظـــم

وبلادنـــا وســـط اللهيـــب فريســـة ... مهمـــا اســـتغاث نـــداؤها لا تـــرحم

-«فالكـــل منتظـــر هنـــاك نصـــيبه ... حتـــى إذا نضـــجت تعـــد وتقســـم»[3]

وفى موضع آخر يقول- معبراً عن المعنى ذاته:

(١) السابق- ص٥٠٥، ٥٠٦.

(٢) المصدر السابق- ص٥٤٤.

(٣) الأعمال الشعرية الكاملة- محمد التهامى - ص٥١٧.

«فأسـرج الكـل أنيـاب مسـممة ... كـل لـه فى دمـى - يـا ويلتـى - أرب
صـاغوا لنـا مـن عمـى أخطائنـا شـركاً ... لا الحـرب تنقـذنا منـه ولا الهـرب
-«تـداعت إلـى حينـا الأطـماع واثبـة ... مـن كـل مغتصـب أغـراه مغتصـب»[1]

كما لا يخفى شعوره بالإحباط من الآثار المدمرة التى خلفتها هـذه الحـرب عـلى تربة الأرض العربية:

«صـارت مرابعنـا شـوهاء مفزعـة ... فى كـل ركـن ترامـت فوقهـا النـوب
تعـيش مـن أهلهـا قفـراء عاريـة ... تعيـد ذكـرهم الغـالى وتنتحـب»[2]

كما أطل هذا الشعور بالإحباط أيضاً فى قول الشاعر:

«ضـاعت نهانـا وضـيعنا عروبتنـا ... لم يبـق منهـا لـدى إدراكنـا نسـب
هـذا الربـاط الـذى عشـنا نقدسـه ... لأنـه فى مـدى تاريخنـا عصـب
دسـنا عليـه فضـجت تحتـه عـرب ... النـاهبون لهـم فى دارهـم عـرب
صـرنا حيـارى فكـل يـدعى عربـاً ... حين العروبـة.. لا صـدق.. ولا كـذب
كـل الحقيقـة قـد باتـت مبعثـرة ... خلف الأكاذيب تستخفى وتنتقب»[3]

لقد اجتاح بلد عربى مسلم بلداً عربياً مسلماً أخر مجاوراً له. وتلك حقيقة واقعـة، وكارثة فادحة ألقت بظلالها التشاؤمية المحبطة على هذا الشاعر الذى كـان دائمـاً معنيـاً بالدعوة إلى تحقيق الوحدة والتكاتف بـين العـرب. ومـا مـن شـك فى أن نشـوب تلـك الحرب سيقضى على أى أمل كان قد تعلق به الشاعر فى تحقيق الوحدة بين العـرب التـى نذر جانباً كبيراً من شعره للدعوة إلى تحقيقها، ثم انعكست آثـار إحباطاتهـا عليـه حسـرة وندامة:

«كنـا نسـير لوحـدة أحلامهـا ... تضـوى فتلقـى النـور فى أيامنـا
نسـعى إلـى غـدنا السـعيد وكلنـا ... فـرح بـما نهـدى إلـى أبنائنـا
حتـى صـحونا تحـت ليـل غـادر ... يعـوى، يصـب الرعـد فى آذاننـا

(١) السابق - ص٥٢٢.
(٢) السابق - ص٥٣١.
(٣) السابق - ص٥٢١.

فنقوم، يجلدنا الذهول، لنلتقى ... بالذعر يملأ سمعنا وعيوننا
ونراه هولاً لا يصدق بعضه ... لكن أقصاه تجمع فوقنا
أهل، نراهم أوغلوا فى ذبحنا ... كنا نظنهم أتوا لعناقنا
وتهاوت الأرحام، يقتل بعضنا ... بعضاً، وتبكى تحتنا أسلافنا»
-«هذا هو الهول الكبير نعيشه ... لكنه هول أطاح بعقلنا
تتشابك الأيدى يقطع بعضها ... بعضاً، ويدمى القلب فى أحنائنا»
-«وتحكمت فينا الجحيم وسعرت ... ورمت شواظ النار فوق ديارنا
فالنار بين ضلوعنا مشبوبة ... والنار ترعى باللظى أرزاقنا
والنار فى الأفق البعيد تحفزت ... لتسد باب نجاتنا وتحيطنا
والعالمون جميعهم فى دهشة ... من شقوة الإنسان فى أوطاننا»[1]

ثم يبدأ الشاعر فى الغوص والانحدار إلى مهاوى هذا الشعور الفادح بالإحباط عندما نسمعه يقول:

«أرحامنا... أنسابنا ... أسماؤنا لم تصدق
لم يبق فينا مؤمن ... من أصله لم يمرق
أو يبق فينا عاقل ... فى جهله لم يغرق»
-«كيف التوت أفكارنا ... من أخرق لأخرق

واسترسلت أعمالنا ... من أحمق لأحمق
ثم احتوانا سجننا ... من ضيق لأضيق»[2]

كذلك نسمعه فى موضع آخر يقول:

«بتنا حيارى ونور الشمس يلعننا ... يسد فى وجهنا الدنيا وينسحب
ظهورنا للهلاك المر مسندة ... ووجهنا للهلاك المر يقترب
ودارنا فى فم البركان موثقة ... فيها ومن حولها يستحكم اللهب»

(١) المصدر السابق- ص٥٥٣- ٥٥٥.
(٢) الأعمال الشعرية الكاملة- محمد التهامى- ٢/ ٢٠٠، ٢٠١.

-«هـذا جحـيم نعانيـه بـها اقترفـت ... أيـد لـبعض بطـون العـرب تنتسـب
يـا طـالما صـغت أشـعاري منضـدة ... تـذوب فى عمقهـا روحـى وتنسـكب
أناشـد العـرب أن تنسـاب فطـرتهم ... لوحـدة لنـداء الحـب تنجـذب»[1]

ولكن بعض هؤلاء العرب لم تستهوهم أو تجذبهم نداءات الحب بقدر ما استهوتهم وسيطرت عليهم أطماعهم ونظراتهم المحدودة الضيقة؛ فدقوا أخر مسمار فى نعش الوحدة العربية، وأنهوا بذلك أى أمل كان من الممكن أن يتعلق به هذا الشاعر. لذلك لم يكن من المستغرب عليه أن يبدو فى غاية التشاؤم والإحباط بعد أن سقط فى براثن هذا التمنى المستحيل بتجميد حركة الزمن حتى تتوقف تلك الحياة التى تساوت تماماً بالموت بعد أن شهدت كل هذا الكم الهائل من الإحباطات:

«يـا ليـت أيـام الحيـاة كسيحة ... شـلاء مـا ظفـرت بخطـوة سـائر
يـا ليتهـا جمـدت ومـات وميضـها ... مـن قبـل مـا انـدفعت لحـظ عـاثر
من قبـل ما وثبـت إلـى وهـج اللظى ... فرمـت بنـا فـوق الجحـيم الثـائر
يـا ليتهـا مـا عربـدت أحـداثها ... يـا ليتهـا حسـمت بكـف قـارد»[2]

كما كان لـ«حرب الخليج الأولى» وقع خاص وأثر فادح فى نفس الشاعر د(عبده بدوى)؛ فقد كان يعمل «أستاذاً فى جامعة الكويت» إبان الغزو العراقى للكويت. ولذلك فهذا الشاعر يعد «شاهد عيان»[3] على تلك الحرب التى ولدت لديه مشاعر إحباطية عمل على إذكائها خيبة أمله العميقة فى القومية العربية، وما عاناه فى طريق عودته إلى مصر من أهوال. وهو يشير إلى تلك الصدمة المروعة فيقول:

«وفى ٢ أغسطس ١٩٩٠ سمعنا فى الفجر أصوات مدفعية من مساكننا فى الشويخ، وأحسنا بشىء من الضيق، فقد كان المناخ السياسى ملتهباً، وما كاد الفجر تتفتح وروده البيضاء، رغماً عنه، حتى رأينا على البعد أرتالاً من الدبابات تلتهم شارع جمال

(١) الأعمال الشعرية الكاملة- محمد التهامى ١/ ٥٢٢، ٥٢٣.

(٢) المصدر السابق- ص٥٤٩.

(٣) أطلق الشاعر هذا الاسم (شاهد عيان فى الكويت) على أحد دواوينه الشعرية التى تضمنها الجزء الثالث من أعماله الشعرية.

عبدالناصر، ورأينا وجوهاً عراقية عابسة تلوح بالبنادق والمدافع والوعيد، وهنا خاب فألى، وتناثرت قوميتى». «وهنا وقعت فى أكثر من مأساة فأنا لم أشهد فى حياتى احتلالاً عربياً للعرب، ثم إننى كنت وحيداً مع ابنتى داليا لمتابعة الفصل الصيفى، وهنا اسودت الحياة فى وجهى وفى عمرى ولم أعرف ماذا أفعل»[1].

انتهت إذن إقامة الشاعر فى الكويت؛ بغزو العراق لها، وبعودته إلى مصر. لكن مشاهد تلك المأساة ظلت ذكرياتها المرة المروعة مسيطرة تماماً على مخيلة هذا الشاعر بعد أن أشبعته يأساً وإحباطاً:

«فالظلم أقسى ما يكون إذا اكتسى   بعباءة عربية سوداء
ولقد عرفناه اجتياح قبيلة   لقبيلة بمسيرة نكراء
ولقد لمسناه رمالاً ترتمى   من غير راحلة، وقربة ماء!»[2]

إن الشاعر لم يذق طعم الراحة أو الاطمئنان طول طريق عودته إلى مصر:

«صرنا لا نعرف شيئاً مما يجرى فى هذى النكبه
فلقد كنا فى غربه
ولقد كنا بين شتات لا نملك حتى أن نفهم
فالظلمة صارت مثل البحر تلاطم فى ساعات!
أصبحنا لا ندرى ماذا نفعل
فسفارتنا لا تعرفنا
والهاتف جن فلا يعطى إلا الصرخات
ووكالات الأنباء الثرثارات
لم تسترسل فى الدقات
بل راحت فى صمت قاتل
تتلوى مثل الأموات

(١) انظر الأعمال الكاملة للشاعر عبده بدوى ٣/ ١٥٣ - ١٥٧.
(٢) المصدر السابق - ص٧٥.

إلا من بعض فتات!»[1].

ولا ينسى الشاعر أن يشير إلى الصمت المطبق الذى خيم على الأجواء؛ فقد صارت الدول العربية إلى صمت القبور غير عابئة أو غير قادرة على إيقاف هذا المسلسل المخزى؛ فقد كانت محطات البث العربى تدوى:

«... مثل إناث النحل من

الملكات بأغانى اللوعة، أو بعض التقسيمات

وبأسعار الدولارات

وبإيماءات للسهرات!»[2].

إن الشاعر يشير فى أسى جم إلى الوضع العربى المتردى الذى غاب عنه التكاتف والتعاضد بين أبناء الوطن الواحد. وهو ما يعنى غياب أى آلية عملية مشتركة لجمع العرب، وفض منازعاتهم.

ثم توجه الشاعر- والأسى ملء جوانحه- إلى دولة (الكويت) بهذا الخطاب المتحسر على ما صار إليه حالها من التدمير والخراب على يد دولة العراق العربية:

«قد صرت وقوداً للحرب

قد صرت مجالاً للنهب

ولماذا كان الأخوه

من قالوا: نحن العرب؟»[3].

ومن جديد يعود الشاعر إلى تساؤلاته الذاهلة حول تلك الحرب العبثية، وفى هذه المرة يرتدى الشاعر قناع شاب كويتى؛ ليشاركه آلامه ومواجعه:

«من قال بأن الجيران الأخوه

تقسوا مثل الدببة

---

(١) السابق نفسه- ص١٦٤، ١٦٥.

(٢) السابق- ص١٦٥.

(٣) السابق- ص١٧٢، ١٧٣.

لا تملك إلا حز الرقبه

ومطاردة لأيائل منسحبه؟»[1].

لكن الشاعر قد وعى جيداً أن تساؤلاته هذه لم تعد تجدى نفعاً على الإطلاق؛ فالحرب بين العراق والكويت كانت قد وقعت، وفرض على هذا الشاعر المصرى أن يكتوى بكل تفاصيلها، وتداعياتها الخطيرة لذلك لازمه الشعور بالإحباط إلى الحد الذى أعلن فيه عن مطالبته ورغبته فى شطب حركة الحياة من هذا الوطن العربى المنهار، واستدعاء مفردات الموت والثبور والتغييب والدفن لهذا الوطن العربى الذى احترف فيه الأهل والجيران التمثيل والكذب والنفاق وأكل بعضهم بعضاً:

«قد قلت وشىء يملؤنى مثل العار

«أرجو شيئاً لا أعدوه»

لما قالوا «ماذا تبغى؟»

تمنمت «جهازاً للإرسال»

كى أتكلم من نفسى مرة

وأقول بصوت سيار:

هذا التمثيل بعالمنا العربى المنهار

كذب، ونفاق، واستهتار

فلنسدل فوق التمثيلية.

من بعد اللهو ستار

ولتحفر كف الحفار

نفقاً من غير قرار

فالموت هو الشىء المجدى للأشجار

عن أزمان ماتت من غير ثمار

عن عقم فى قلب الأنهار

(١) السابق- ص١٩٦.

عن آذان ما زالت تكبر باستمرار

عن أسياف لا ترفع إلا فوق الأهل! وفوق الجار!!»[1].

كما ألقت حالة تمزق العرب، وتشرذمهم بظلالها القاتمة على الشاعر (حسن توفيق) الذى ينعى تلك الحالة التى وصل إليها العرب من خلال رصده حادثة مأساوية. هى محاصرة بعض العرب مجموعة من اللاجئين الفلسطينيين، وتجويعهم؛ والشاعر يقول- نثراً- فى التقديم لتلك القصيدة: «فى فبراير ١٩٨٧ كان بعض أهلنا العرب محاصرين من قبل بعض آخر من أهلنا العرب!.. كان هذا فى مخيم برج البراجنة، وطالب المحاصرون الجائعون باستصدار فتوى تتيح لهم أكل لحوم الموتى..».

والشاعر يفتتح قصيدته بالإشارة إلى هوان العرب، وحالتهم المزرية التى وصلوا إليها. وهى حالة تشبه التنبؤ بمجئ طوفان كبير سيأتى على الأخضر واليابس، يقول:

«جبل جليدى من اليأس الذى ينهار فوق قلوبنا المتوجسه

ينهار- فى بطء- على كل المدائن والمآذن والبيوت ولا يذوب

ويجرنا للزوجة المستنقعات المفلسه

والشمس كاذبة وغاربة كأن لا شىء فى الدنيا سوى نعش الغروب

الشمس كاذبة وأرض النور تجهش باكيه

فمن المحيط إلى الخليج

نمضى لأبشع هاويه»[2].

ثم ينفذ الشاعر مباشرة إلى قلب المأساة، فيقول:

«يا أيها الزمن المؤهل للسقوط بأمة غرقت صحائفها المجيده

جئناك بالنبأ اليقين، وما عليك سوى الترقب للمتاهات الجديده

منعوا الطعام عن الذين تشردوا من أرضهم فاستقبلتهم أضرحه

وتلقفتهم خيمة القهر المخلخلة البناء

(١) المصدر السابق نفسه- ص١٦٩، ١٧٠.

(٢) القصيدة هى (مرثية الزمن العربى) انظر الأعمال الكاملة- حسن توفيق- ص١٤٣، ١٤٤.

وتساندوا متحملين خطى الشتاء، ففوجئوا بهطول أعتى الأسلحه

وبأن أنهار الدماء تفيض من أجساد جرحاهم ولم يأت الدواء

هذا هو النبأ اليقين

الجوع يعصف بالبطون الخاويات ولا معين

ماذا يقول المتخمون الجالسون على الأرائك فى انتشاء وارتخاء؟

فليأكلوا أجساد موتاهم لكى يبقوا على قيد الحياة محاصرين

ما دام فى أمل الصهاينة انتشار كالوباء

والمسلمون.. مطامع، وتوابع، وشقاق

فإذا تلاقوا- مرة- وتصافحوا عند اللقاء

فالأرض تعرف جيداً أن اللقاء نفاق»[1].

إن استخدام الشاعر كلمة (مرة) فى قوله (فإذا تلاقوا مرة وتصافحوا) يشير إلى قلة حدوث هذا التلاقى والتصافح. وهو ما يؤذن بندرة حدوث أى اتفاق أو تفاهم بينهم.

وكلام الشاعر فى هذه القصيدة يؤكد على وضوح ما وصل إليه العرب من تشتت وتمزق وتشرذم ينذر بوقوع كارثة كبرى يكون السبب المباشر فيها سقوط بعض الأنظمة العربية فى التواطؤ مع الكيان الصهيونى الذى اتخذ من بعض العرب أداة طيعة؛ لتفريق العرب، وتمزيق صفوفهم؛ حتى يتحولوا إلى لقم سائغة يسهل على أعدائهم قضمها وهضمها دون ضجيج، ودون أى مقاومة تذكر.

والشاعر فى إطار ذلك لم ينس أن يشير إلى الحرب الأهلية اللبنانية التى «اندلعت فى عامى ١٩٧٥- ١٩٧٦»[2]:

«يا أيها الزمن المؤهل للسقوط.. بلا دوى

جئناك بالنبأ اليقين

من أرض لبنان الطعين

(١) السابق نفسه- ص١٤٥، ص١٤٦.

(٢) الدم وثنائية الدلالة- د/ مراد عبدالرحمن مبروك- ص٣٢.

حيث القلوب يشقها لفح الهواء الطائفى

والحقد ميراث دفين

يسقيه من عبثوا لمرتزق تفنن فى التمسح بالكيان العنصرى»[1].

إنها الحرب الأهلية فى لبنان التى استمرت عشر سنوات تقريباً بعد أن عملت أطراف داخلية وخارجية على إذكاء نيران تلك الحرب الطائفية، التى كانت حرباً محبطة لكل عربى غيور على عروبته. وهو ما جعل هذا الشاعر يتناول ذلك الوضع المحزن فى أكثر من موضع من شعره:

«آه لبنان والأفاعى تتاجر بالدم الجارى فى بحور المجازر

مسخت أرضك الوديعة قبرا موحشاً مبتلى بكل مغامر

هكذا يطحن الرصاص كيانا عربياً تقاسمته المحاور

بت تدمى ولم يعد لك منجى من هلاك إلا بميلاد ثائر

ما دعاة التقسيم إلا ثعالب طائفى فيهم وفيهم أجانب»[2]

وإذا كان قد صاغ قصيدته السابقة عام (١٩٧٦) فإنه يعود بعدما يقرب من عشر سنوات؛ ليصوغ قصيدة أخرى هى قصيدة (لبنان والجحيم). وهى قصيدة جاءت مواكبة لنهاية تلك الحرب المأساوية الدامية. ولكن نهاية تلك الحرب لم تعن مطلقاً أن الشاعر قد استطاع أن يتغلب على مشاعر الإحباط، وأن يتخلص من آثارها على نفسه، حتى مع إعلان توقف تلك الحرب الطائفية. ذلك عندما يقدم الشاعر بين يدى قصيدته هذه بمقدمة نثرية يقول فيها: «..إذا كان لبنان العربى الجميل يستعيد حيويته من جديد، فإن سنوات الاقتتال بين طوائفه وفئاته المختلفة كانت كارثة لكل إنسان عربى مخلص لعروبته..».

ويتضح أيضاً ذلك أكثر عندما نستمع إلى قصيدة الشاعر؛ حيث يقول فيها:

«قالت الأرض: لست أريد دما، فأنا من سنين شربت الكفايه

واحتضنت الجثث

(١) الأعمال الكاملة- حسن توفيق- ص١٤٥.

(٢) المصدر السابق نفسه- ص٣٩٠.

أبصروا بعض أشلائي بعدما شوهتها أياديكم المذنبه

كل شلو بحضني هنا أصبح الآن يروى حكايه

اسألوا طلقة الآلة المرعبه

اسألوا مرة كيف هنا حدث؟

يقتل المرء.. لو لونه لم يرق لمجون العيون

يقتل المرء.. لو حاصرته الظنون

يقتل المرء.. حتى ولو كان طفلاً بروح بريئه

فغدا يكبر، والأحوط أن تقتلوه

يقتل المرء.. كى يستريح إذا أرهقته الحياة بأثقالها

يقتل المرء.. كى يستريح تماماً من العيش فى ظل بؤس «المخيم»

يقتل المرء.. لو راح يعدو لينجو من القصف كى يستقر فينعم

يقتل المرء.. حتى ولو كان أما رؤوما تحيط بأطفالها

يقتل المرء.. لو دينه لم يرق للنفوس الدنيئه

يقتل المرء.. لو صوته غير أصواتكم أيها الحاملون الجنون

أيها الحاملون السلاح المباح ولا تحملون عقولاً مضيئه»[1].

إن تكرار عبارة (يقتل المرء)، ومجيئها على صيغة المضارع المبنى للمجهول يومئ إلى غموض كثيف يلف تلك الخرب الطائفية؛ فالقتل هو المحصلة الطبعية التى أفصح الفعل المضارع عن استمرارية وقوعها- على الرغم من انتهاء الحرب- دون معرفة المبرر ولا معرفة القاتل أيضاً ولا الدوافع الحقيقية التى وقفت وراء إقدامه على قتل أخيه اللبنانى العربى. هذا الغموض كان وراء عجز الشاعر عن الإجابة عن التساؤلات التى أخذت تلقيها ق وجهه حبيبته (أم أطفاله)؛ لأنه لم يعثر لها على إجابة شافية سوى تلك الإجابة التى تشف عن مشاعر الإحباط واليأس:

«أم أطفالنا سألتنى: «لأين»

(١) السابق نفسه- ص١٣٩، ص١٤٠، ص١٤١.

صوتها لم يكن صوتها.. صوتها كان منبعثاً من قرار الجحيم

صوتها كان صوتاً لذعر مقيم

سألتنى الحبيبه

فجأة.. أين نمضى؟ وأين ليالى الأمان الخصيبه؟

قلت: لا أعرف الآن شيئاً.. دعينا لكى نحتمى من لئام الوجوه

سألتنى الحبيبه

- من جديد- لأين سنمضى؟ لأين.. لأى مكان»[١].

ولكن تلك الحبيبة التى اعتادت توجيه مثل تلك الأسئلة المثيرة للأسى إلى الشاعر المحبط المذهول لم تعثر منه على أية إجابة تبعث الطمأنينة فى قلبها؛ فقد ترك هذا الشاعر اليائس مهمة الإجابة لقنبلة تنفجر فتبعثر شظاياها حوله وحولها:

«قلت: ليس لنا.. ها هنا.. من مكان

فاتركى الأسئلة

كى تجيب عليها شظايا تبعثرها- فجأة- حولنا قنبله!»[٢].

وهكذا بدا أن إحباطات الشاعر لا تقف عند حدود حوادث معينة مؤطرة الأبعاد محدودة الأثر، ولكنها تتجاوز ذلك إلى اعتماد رؤية شاملة تعتبر أن الكيان العربى كله قد بات مهدداً بفعل الخلافات والانقسامات البينية، والتى أصبحت غائرة ومزمنة فى جسد الوطن العربى بصورة تنذر بضياع أغلى المقدسات والأراضى من بين أيدى العرب؛ ويتضح ذلك من قصيدة الشاعر «رسالة من تحت الرصاص» التى تقمص فيها روح شهيد فدائى فلسطينىّ، وأنشأ يقول:

«لم أكن أبغى رفح

وحدها.. بل كنت أبغى كل أقطار العروبه

صارخا فى الناس هبوا.. ويحكم.. ويح السكارى

(١) المصدر السابق نفسه- ص١٤٢.

(٢) السابق نفسه الصفحة نفسها.

قدسكم تبكى عليكم.. قدسكم تبكى انتظارا

أرضكم ترنو إليكم.. أرضكم تبكى الفرح

منذ أن باتت سبيه

ويح أشواق كذوبه

تتغنى بهواها

وهى فى الأسر..

تنادى كل روح عربية

ها أنا الآن انطفأت

كشعاع لفه الليل بأفق مستباح لمناقير الصخب

هل ترى مت بطلقات وحوش من بنى التلمود أم أنى قتلت

بالهواء البارد القاسى..

هواء الصمت والأهواء فى دنيا العرب؟!»[1].

لقد بدا أن تحكم الأهواء والأطماع الشخصية الضيقة لدى بعض حكام العرب سيؤدى إلى توالى الاقتتال بين أبناء الوطن الواحد. وهو ما سيؤدى إلى إضعاف شوكتهم. ومن ثم يكون توالى التنازلات عن الحقوق العربية المغتصبة أمراً محتوماً طالما ظل حالهم على هذا النحو من التفرق والتشرذم. وهو ما يؤذن بزوال أمة العرب، واندثارها تماماً، وإلى هذا المعنى قد أشار الشاعر فى قصيدته (روما صنم وتابوت)[2]، وكذلك قصيدته «مرثية الزمن العربى» التى اختتمها بقوله:

«جبل جليدى من اليأس-المقيم يشلنا بعد التعلل بالأمل

وعلى خطى الجبل الذى يجتاح أرض الأنبياء

تبقى طلول شاهدات ليس فيها من ملامحنا سوى بعض الخجل

والنار أولها القريب وبعده يأتى البعيد المستكن ولا رجاء

---

(١) المصدر السابق نفسه- ص١٣٣، ١٣٤.

(٢) انظر المصدر السابق نفسه- ص٢٥٩.

وعلى المدى يأتى زمان شائه يتساءل الأحياء فيه عن العرب

فيتمتمون بأنهم كانوا هنا قبل الأفول

لكنهم رقصوا سكارى حول إيقاع التقارب والتباعد فى الخطب

ثم اختفوا بين الخرائب وانطووا تحت الطلول»[1].

إنه بلغ قمة الشعور بالإحباط بعد أن فقد الأمل فى هؤلاء العرب الذين لا يجيدون غير اللعب على أوتار الخطب الرنانة العبثية التى لن تعيد حقا، ولن تنصف مظلوماً. ويبقى الإحساس بالخزى والذلة واليأس لصيقاً بالإنسان العربى المخلص؛ لما آلت إليه أحوال العرب التى تدمى القلوب:

«لا أعرفها.. لكن سناء[2]

تعرف أني أحد الموتى المتكئين على مجلس وهم

تعرف أنى أتلهى بالجمل - الحيل المخبوءة فى كتب الإنشاء

أتخفى فى وحل الحجج المعتادة إن برز التمساح وفاض الدم

يتسرب مني تاريخي.. وطني.. يتسرب صوتى فى رمل الإغواء

وأعود أمارس ألعابى.. وأتابع رقص الشرق.. أتابع أسخف فيلم

قدر لى.. أن أبقى أتفرج

قدر لى.. أن أتعلق فى زمن عربى الخيبة.. مرتجف الأعضاء

قدر لى.. ألا أخجل من أخيب ألعابى أو أتحرج

قدر لى.. أن أبقى أتطاير كالورق المتناثر فى الريح الهوجاء..»[3].

كما التقط الشاعر فاروق جويدة حادثة محاصرة مجموعة من الفلسطينيين فى لبنان ومطالبة هؤلاء المحاصرين باستصدار «فتوى من علماء المسلمين تبيح لهم أكل

(١) السابق- ص١٤٦، ١٤٧.

(٢) (سناء يوسف محيدلى) فدائية لبنانية استشهدت (بعد أن قامت بعملية فدائية بطولية ضد الاحتلال الصهيونى فى جنوب لبنان)- انظر المصدر السابق نفسه- ص١٢٦.

(٣) المصدر السابق نفسه- ص١٢٧، ١٢٨.

جثث الموتى حتى لا يموتوا جوعاً»[1] - لينسج من خلالها قصيدته الرائعة (ملعون يا سيف أخى) والتى تعد من عيون الشعر العربى المعاصر، ومن أكثر القصائد صدقاً وتعبيراً فى هذا المجال، فعنوان القصيدة يشى بمحتواها المر ويصدح به، فهو يعبر عن خيبة الأمل فى الأخ العربى الذى لم يتوقف به الأمر عند حد القعود عن نصرة أخيه العربى ومساندته، ولكنه قد تجاوز ذلك إلى محاصرة هذا الأخ وإذلاله وتجويعه.

والشاعر فى تلك القصيدة يرتدى قناع أب فلسطينى ذاق مرارة الجوع والحصار لا على يد العدو الصهيونى ولكن على يد أخيه العربى فى لبنان، وقد وصل الجوع بهذا الأب الفلسطينى إلى حد كاد أن يفتك به ويقتله، لذلك فهو يطالب بفتوى باسم الإسلام تتيح له أكل لحوم الموتى.

ولكن ملامح المأساة تتشكل وتكتمل لتملأ الحلوق غصصاً ومرارة عندما نجد هذا الفلسطينى يريد أن يفتى له بجواز أكل لحم ابنه الذى قتل أمام عينيه وسقط صريعاً بين مخالب جوع لا يرحم:

«لم آكل شيئاً
منذ بداية هذا العام
والجوع القاتل يأكلنى
يتسلل سماً.. فى الأحشاء»
- «من منكم يمنحنى باسم الإسلام؟
أن آكل ابنى..
ابنى قد مات
قتلوه أمامى
قد سقط صريعاً
بين مخالب جوع لا يرحم
بعد دقائق سوف أموت

(١) لن أبيع العمر- فاروق جويدة- ط ١ - دار الشروق - ٢٠٠٧ م. ص٥٤.

ودماء صغيرى شلال

يتدفق فوق الطرقات

أعطونى الفرصة كى أنجو

من شبح الموت

لا شيء أمامى آكله.. لا شيء سواه»[1].

إن الشاعر قد افتتح قصيدته بحرف النفى الجازم (لم آكل) وهى بداية افتتاحية مرة غطت مرارتها كل أرجاء القصيدة، وغذت الشعور بالإحباط بداخل هذا الإنسان العربى الذى عز عليه إيجاد المنصف والنصير؛ بل إن القهر والإذلال والتجويع قد صار يمارس فى أبشع صوره من بلد عربى فى حق فئة مستضعفة من بلد عربى آخر مجاور له، وهو أمر يدعو إلى الذهول والانزعاج ويفتقد أساساً إلى أى تبرير منطقى.

لكن هذا الأب الفلسطينى قد وجد فى جوعه الذى وقف به على مشارف الموت المبرر الذى يخفف من الدهشة والانزعاج من طلبه باستصدار فتوى تبيح له أكل لحم ابنه الميت. ومن ثم فقد شرع فى الدفاع عن نفسه:

«لا تنزعجوا

لست بمجنون.. أو قاتل

فأنا صليت الفجر ورب الكعبة عشر سنين

لم أترك فرضاً

وكثيراً ما أقرأ وحدى

ورد الصوفية.. كل صباح

وأنا والله أصوم ويسحرنى

قبس من نور فى رمضان

وأهيم وحيداً..

حين يطل على قلبى نور الرحمن

(١) السابق- ص٥٤، ٥٥.

وأنا والله أخاف الله

وأخشى يوماً تنكرنى فيه قدماى»

«قد جئت الآن لأسألكم

أفتونى باسم الإسلام

أن آكل ابنى

إنى والله أبوه.. وأعرف أمه

أشهد والله بأن امرأتى

ما كانت يوماً زانية

كى تزنى فيه

ولدى من صلبى أعرفه

ومن لون الشعر.. إلى قدميه»[1].

ويظل الشاعر فاروق جويدة يستعطف القلوب ويستمطرها بكاء وحسرة على ذلك الأب المفجوع فى ولده القتيل، ولننظر فى تلك الصور المؤثرة:

«أحببت صغيرى

حملته يداى.. وأسمعنى

أحلى الضحكات

ولدى قد مات

أحمله الآن على صدرى

أشلاء رفات

كم كنت أصلى فى عينيه

ويغمرنى ضوء الصلوات

كم كنت أحدق فيه

(١) انظر السابق- ص٥٥- ٥٧.

فألمح عمرى بين يديه»

«ولدى من زمن يسكننى

وأنا من زمن أسكنه

قد عاش زماناً فى صدرى

والآن تكفنه عينى

فدعونى آكل من ابنى

كى أنقذ عمرى»[1].

ولا يفارق الشاعر فاروق جويدة ذلك القناع حتى يرهقنا بتفاصيل تلك الصورة الرهيبة:

«ماذا آكل من ابنى؟

من أين سأبدأ؟

لن أقرب أبداً من عينيه

عيناه الحد الفاصل

بين زمان يعرفنى

وزمان آخر ينكرنى

لن أقرب أبداً من شفتيه

شفتاه نبى مصلوب

برسالة نور تهدينى

وبريق ضلال يجذبنى

لن أقرب أبداً من قدميه

قدماه نهاية ترحالى

فى وطن عشت أطارده

(١) السابق- ص٦٠ - ٦٣.

وزمان عاش يطاردنى»[1].

إن هذا الشاعر المحبط لم يرد من ارتدائه لقناع هـذا الأب الفلسـطينى إلا أن يقـوم بعملية عصر القلوب واستبكائها لاستقطار مشاعر التعاطف والشفقه التى ضـاعت بنـي العرب المسلمين. هذا من ناحية ثم إنه مـن ناحيـة أخـرى يريـد أن يرمـز بتلـك الحالـة الإنسانية إلى ما وصل إليه حال العرب المسلمين من تشتت وانقسام، وهو ما سـينعكس بالضرورة آثاراً سلبية على صور مقاومة العرب ومحاربتهم أعدائهم:

«حاربت كثيراً أعدائى

لم أهزم منهم

حاربنى ظلى

حاربنى سيفى.. يا للعار

تسلل فى ظلمة ليل

كى يسكن جنبى

حاربنى قلبى

كيف الشريان تنكر يوماً.. خادعنى

وغدا سكينا فى قلبى؟!

فأخى فى الله.. وباسم الدين

وباسم محمد

يقتلنى فى غرفة نومى

ابنى قد مات بسيف أخى

وغداً سأموت بسيف أخى

ملعون يا سيف أخى فى كل كتاب»

-«ملعون يا سيف أخى

فى كل زمان

(١) السابق- ص٦٣، ٦٤.

ملعون يا عار أخى

خوفاً فى صدر المحكومين

وبطشاً فى أيدى الحكام

ملعون يا سيف أخى»[١].

إن لعنات الشاعر تنصب بصورة مكثفة لا على العدو الخارجى البغيض بل على الأخ العربى الذى استخدم سيفه الباطش أداة لقهر وقمع أخيه العربى المسلم بدلاً من أن يستخدمه فى الذود عنه والوقوف إلى جانبه، وبذلك يصل الشاعر إلى حالة تامة من الإحباط أعقبها هذا التبرؤ من تلك الأخوة التى لا تراعى حرمة النسب أو الدين أو الدم:

«خانتنا كل الأرحام

ما أنت أخى

قد جئت سفاحاً يا ملعون.. وابن حرام

ملعون يا وجه أخى

فدمى يتحلل فى الأنقاض

وبين الموتى.. والأيتام

ملعون يا سيف أخى

سيف يتعبد للسفهاء

ويسحقنا تحت الأقدام»[٢].

وبعد، فقد كانت قصيدة (ملعون يا سيف أخى) تحمل بين طياتها تعبيراً رمزياً مكثفاً امتلأ بفحوى مضمونه كيان هذا الشاعر المحبط الذى كان يوقن أن اختلاف العرب وتناحرهم سيؤدى بالضرورة إلى إضعاف شوكتهم وهو ما سيعطى للعدو المشترك فرصة سانحة وميزة إضافية لمضاعفة قوته. لذلك وجدنا الشاعر فى قصيدة

(١) السابق- ص٦٦- ٦٨.

(٢) السابق- ص٦٨، ٦٩.

أخرى يرثى هذا الضعف والتمزق الذى غذته الأطماع الخارجية والنزاعات البينية:

«قد وهنت

فينا المروءة

أعيتنا مآسينا

بيروت فى اليم ماتت

قدسنا انتحرت

ونحن فى العار نسقى وحلنا طينا

بغداد تبكى

وطهران يحاصرها

نهر من الدم

بات الآن يسقينا»[1].

إن الشاعر يشير إلى مجموعة من الأحداث السياسية الخطيرة ممثلة فى احتلال إسرائيل لفلسطين ممثلة فى أبهى وأقدس معالمها وهو القدس الشريف، كما أشار كذلك إلى الحرب الأهلية فى لبنان (عام ١٩٧٥)، وإلى حرب العراق وإيران (عام ١٩٧٩) والتى استمرت كل منهما ما يقرب من العشر سنوات.

كما لا يفوت الشاعر أن يشير إلى اجتياح العراق للكويت فى قصيدة أخرى هى قصيدة «سيف الغدر كذاب» وفيها يقول:

صرنا أسوداً نبيع الموت فى سفه	أسد على الأهل.. للأعداء أذناب
دم الكويت على عينيك أرقنى	فهل جزاء الوفا قتل.. وإرهاب؟
هذا أخى يستبيح الفجر فى وطنى	أحلامنا البكر فى كفيه أسلاب
هذا أخى فى حنايا القلب يسكننى	فكيف تسكن وسط القلب أنياب؟

إنه إذن حال لا يرتجى من ورائه بادرة أمل ولا يبشر بخير على أية حال.

وبالطبع فإن من يتحمل المسئولية عن تلك الحال المتردية هم حكام العرب

(١) طاوعنى قلبى فى النسيان- فاروق جويدة- دار غريب - ١٩٨١م. ص٥٥، ٥٦.

الذين باعوا النخوة والأخوة والشهامة واشتروا عرض الدنيا الزائف بعد أن شغلتهم أطماعهم الدنيوية وتفرغوا لمجابهة بعضهم البعض*:

«حكامنا ضيعونا حينما اختلفوا

باعوا المآذن

والقرآن والدنيا

حكامنا أشعلوا النيران

فى غدنا

ومزقوا الصبح

فى أحشاء وادينا

مالى أرى الخوف فينا

ساكناً أبداً

ممن نخاف

ألم نعرف أعادينا؟»[1].

لكن إجابة الشاعر على هذا التساؤل لا تتأخر وهى إجابة واضحة تؤكد على فكرة أن هؤلاء الحكام المتنازعين المختلفين الذين تفننوا فى قمع شعوبهم والبطش بهم تارة وتخديرهم بوعود واهمة واهية تارة أخرى هم العدو الحقيقى:

«أعداؤنا

من أضاعوا السيف من يدنا

وأودعونا سجون الليل تطوينا

أعداؤنا

من توارى صوتهم فزعا

---

* انظر قصائد سيف الغدر كذاب ص٢٩. وقصيدة مرثية ما قبل الغروب ص٣٩. وقصيدة كانت لنا أوطان ص٤٥. وقصيدة سيف الغدر كذاب ص٢٩. ولصوص العصر ص٥٤، من ديوان كانت لنا أوطان.

(١) طاوعنى قلبى فى النسيان- فاروق جويدة ص٥٧، ٥٨.

والأرض تسبى

وبيروت تنادينا

أعداؤنا

أوهمونا آه كم زعموا

وكم خدعنا

بوعد عاش يشقينا

قد خدرونا بصبح كاذب زمناً..

فكيف نأمل

فى يأس يمنينا

أى الحكايا سنروى

عارنا جلل

نحن الهوان

وذل القدس يكفينا»[1].

وفى موضع آخر يعبر عن المعنى ذاته فيقول:

«وعلى رصيف القهر

ماتت أمة ثكلى.. وودعت الكرامه

أطفالنا بين المقابر يأكلون الصبر

يرتعدون فى زمن الندامه

ما بين جنرال.. وشيخ.. أو مليك

أو وريث فى عمامه

القهر فى أوطاننا سمة الزعامة

والقتل فى حكامنا أبهى علامه»[2].

(١) طاوعنى قلبى فى النسيان- فاروق جويدة ص٥٨-٦٠.

(٢) كانت لنا أوطان- فاروق جويدة- ص٥٩.

إن البوادر كلها تشير إلى مشاعر إحباطية طاحنة عرفت طريقها مباشرة إلى نفس هذا الشاعر الذى يئس من تحقيق الوحدة والتكافل والتناصر بين أبناء الوطن العربى الواحد، وعرفوا الذلة والهوان، وقعود الهمة، فكان ذلك إيذاناً بزوال تلك الأمة ومآلها إلى الثبور والاندثار*، وهنا نستمع إلى تلك النبوءة المفزعة من هذا الشاعر المحبط (فاروق جويدة):

«أكاد ألمح خلف الغيب كارثة ... وبحر دم على الأشلاء ينهمر
يوماً سيحكى هنا عن أمة هلكت ... لم يبق من أرضها زرع.. ولا ثمر
حقت عليهم من الرحمن لعنته ... فعندما زادهم من فضله.. فجروا
يا فارس الشعر قل للشعر معذرة ... لن يسمع الشعر من بالوحي قد كفروا
واكتب على القبر: هذى أمة رحلت ... لم يبق من أهلها ذكر.. ولا أثر»[1]

أما الشاعر (عبدالمنعم عواد يوسف) فإنه يعبر مباشرة عما انتابه من مشاعر الإحباط؛ يقول:

«أتقتلون بعضكم، بلا سبب..
وتنتقون للهيب أجود الحطب..
وكلكم يظن نفسه محمداً..
وكلكم أبولهب..
وتدعون أنكم عرب..
إن كان من أراهمو أمام ناظرى عرب..
فقد كفرت بالعرب..
أجل كفرت بالعرب..»[2].

---

* انظر قصيدة مرثية ما قبل الغروب من الديوان السابق- ص٣٩.

(١) ديوان كانت لنا أوطان- ص٤٨.

(٢) الأعمال الكاملة للشاعر عبدالمنعم عواد يوسف- ٢/ ٤٨٩.

انطوت هذه المقطوعة على مشاعر مفعمة بالأسى الممض لا يحدها إطار زمنى معين؛ فتاريخ نشرها يرجع إلى عام (١٩٧٩). إلا أنها تشف عن رؤية مستقبلية أيضاً؛ فقد صورت ما حدث بين بعض العرب من نزاعات وحروب نشبت بين دول الوطن العربى الواحد؛ مما تسبب فى تمزيق الصف العربى، وإضعاف العرب، واهتزاز صورتهم ومكانتهم وفى تقاعسهم عن مناهضة العدو المشترك؛ لاسترداد الحقوق العربية المغتصبة.

إن حالة كهذه لن تعود على الشاعر بغير مشاعر الإحباط التى ولدت بداخله الرغبة فى التهكم بهؤلاء العرب الذين تنكروا لتاريخهم المجيد فأضاعوه وأضاعوا حقوقهم المشروعة التى اغتصبت وعجزوا عن استرجاعها.

«كذب هو التاريخ يا عرب
كل الذى روجتمو كذب
ما كان عنترة سوى وهم
تمثال زيف؛ إنه حشب
كل الملامح محض تلفقة
دارت بها الأشعار والخطب
لو إنها حدثت كما رويت يوماً،
فكيف الحال ينقلب
إن الحقيقة حين يعوزها
صدق الدليل، فأمرها عجب
من ذا يصدق أننا عرب
وإلى الكرام الصيد ننتسب
من ذا يصدق أننا يوماً
قد شدنا نحو العلا سبب»[1].

---

(١) الأعمال الكاملة للشاعر عبدالمنعم عواد يوسف- ١/ ٤٥١، ٤٥٢.

لم يجد لهذه الأسئلة الحائرة غير إجابة واحدة بدت على هذا النحو من اليأس والإحباط:

«لا يا أخى ما نحن من كانوا

ذلك الزمان، وكلهم نجب

أو نحن من نسل لهم؟ كلا

أنا لست أحسب أننا عرب»[1].

ولا ينسى الشاعر أن يبرر رؤيته المتشائمة:

«لو أننا عرب لأرجعنا

كل الذى من أرضنا سلبوا

لو أننا عرب لما رضيت

منا النفوس بنهب ما نهبوا

لو أننا عرب لوحدنا

منا الصفوف وللعلا نثب

لو أننا عرب لما نمنا

نوم الكهوف وحالنا عجب»[2].

إن تكرار الشاعر عبارة (لو أننا عرب) على هذا النحو اللافت للنظر يعكس إحباط الشاعر، ويأسه وتبرؤه من أفعال هؤلاء العرب الذين ارتضوا لأنفسهم القعود عن مناصرة بعضهم البعض، وتفرغوا للتقاتل فيما بينهم، فصارت أرضهم نهباً، وحقوقهم مغتصبة دون أمل فى نخوة تحركهم لاستعادة أمجادهم الغابرة، فقد صاروا رقوداً لا أمل فى استيقاظهم:

«أنا الجثة، المجد كانت

فهل تذكرون الذى كان مجداً، ومات؟

(١) المصدر السابق نفسه- ص٤٥٣.

(٢) السابق نفسه- ص٤٥٤، ٤٥٥.

أنا الدوحة، العز عاشت

ولكنها صوحت، واستحالت رفات!

واسمعها ما تزال تغنى،

تحدث عن سالف العهد، أمجادها الغابرات

فغنوا، وغنوا، وغنوا..

وهل نحن نحسن إلا ممارسة الأغنيات

أيا جثثاً حشوها ترهات

أيا جثثاً أكلت ماضياً،

وتأرق فى ليل حاضرها فى انتظار عقيم لما هو آت..

وليس بآت»[1].

هؤلاء العرب لم يعودوا يحسنون غير التغنى بأمجاد أجدادهم الغابرة ظانين أن هذا الغناء وحده سيعيد إليهم ما تسببوا هم فى فقدانه من عزة ومجد وشموخ. إنهم يتخلون عن محاولة القيام بأى فعل إيجابى، ويضعون أنفسهم تحت تصرف السلبية المطلقة التى راحت تحركهم وتتلاعب بهم كيفما شاءت فهوت بهم إلى هوة سحيقة من الضعف والتخاذل:

«السنون العجاف.

أى شىء لنا خلفت للشتاء؟

وسمان البقر،

أجهضت فى الربيع

* عاطل، عاطل، يا زمان النساء..

عبلة ما تزال،

بينما عنترة،

(١) المصدر السابق نفسه- ص٢٥٠، ٢٥١.

مات من ألف عام»[1].

أما الشاعر (فاروق شوشة) فقد لجأ فى تصوير انقسام العرب إلى استبطان دخائل هؤلاء العرب الذين يظهرون لبعضهم الود والابتسام، ويتبادلون فيما بينهم أحاديث الأخوة، ويظهرون الود، بينما تنطوى دخائلهم على أحاسيس عدائية يضمرها بعضهم لبعض:

«هل لى أن أقترح الليلة
نخباً تشربه العائلة»
-«حفل لجميع العائلة
اكتمل الشمل»
-«والأعداء الإخوة
يستبقون لهذا الحفل
خناجرهم تحت عمائمهم
وعمائمهم فوق رؤوس يملؤها الغدر
جيوبهمو فوهات بنادق محشوة
يسطع منها وجه شائه
وضراوة أحقاد
طالت
لا تتخلف عن موعدها
فى كل لقاء
انطفأ الضوء
فأهلاً بالظلمة قادمة
والأنياب المسنونة تحتشد لساعة فتك»

(١) المصدر السابق نفسه- ص١٩٩.

-«العائلة، المتآكلة، المتصارعة

على شبر من أرض

أو برميل من نفط

أو قبضة حسك فى صحراء

والمنشغلة عن زلزال فى قلب البيت

جحيم يبتلع الأهل،

وغول يبدل شكل الأرض

ويكسو بالعبرية وجه الكون

ويطمس ذاكرة الأشياء»[1].

إن هؤلاء الإخوة الأعداء منشغلون بصراعاتهم ومنازعاتهم البينية التى ولدتها أنانية ضيقة ألهتهم عن العدو الإسرائيلى المتربص الذى أتى لابتلاع الأرض، والتهامها بما عليها من حياة. وهنا يتساءل الشاعر فى مرارة يائسة: _

«هل يصلح هذا النخب العابر ما أفسده الدهر

وما دشنه الغدر

وأصبح ثأراً يتنزى

وبحار دماء؟

ولماذا حين يثور الأعداء الإخوة

يحتربون،

ويفترسون

البأس الكامن فيهم لا يتجلى

إلا حين يكون عليهم

لكن قلوبهمو شتى

(١) وجه أبنوسى- فاروق شوشة- الهيئة المصرية العامة للكتاب- ٢٠٠٠- ص٧٥-٧٨.

إن ندبو يوماً للجلى!

والعقل خواء»[1].

إن الشاعر قد أفصح عن شعوره بالإحباط؛ لعدم صلاحية هؤلاء العرب المتناحرين فيما بينهم «على شبر من أرض أو برميل من نفط أو قبضة حسك»- لخوض غمار مقاومة هذا العدو الرهيب؛ فهم مشغولون بحمل حقائبهم، والتوجه إلى العواصم الخارجية مستعطفين تارة، ومتعهدين تارة أخرى، فى مذلة مهينة، واستكانة ضارعة:

«والأعداء الإخوة..

ترتحل حقائبهم

وتسافر من عاصمة حتى عاصمة أخرى

تستأذن أو تستعطف

ترجو أو تتعهد

تطلب أو تستغفر

لا تحمل، مهما حملت

إلا أشلاء

ونوايا عاجزة

وقلوباً صماً عمياء!»[2].

ثم ينبه الشاعر- فى لفتة بارعة- إلى الأساليب الدنيئة التى انتهجها العدو؛ لإلهاء حكام العرب عن مصالحهم الوطنية الحقيقية، وتوجيههم إلى قتال بعضهم بعضاً بدلاً من مواجهة العدو المشترك الذى يحاول جاهداً إطفاء جذوة الوحدة العربية مستخدماً كل معاول الهدم فى جدارها المتداعى:

«هذا زمن الحفل البازخ

يعمى بالذهب الرنان

---

(١) السابق نفسه- ص٧٨، ٧٩.

(٢) السابق- ص٧٩، ٨٠.

ويغرى الحمقى بالدولار

ويغوى الموتى بالدينار

ويقتل باثنين:

الرهبة،

والإغواء»[1].

إنها سياسة الترغيب والترهيب، أو سياسة (العصا والجزرة) التى انتهجها أعداء الخارج فى تحويل وجهة حكام العرب من مقاتلة العدو الخارجى الطامع فى أرضهم العربية إلى معاداة بعضهم البعض. لذلك تعددت الخلافات، وتعددت الشروخ، خاصة بعد غزو العراق للكويت- فيما يسمى بحرب الخليج الأولى- وبعد مشاركة مصر وعدد من الدول العربية فى عاصفة الصحراء- أو ما سمى بحرب الخليج الثانية- التى حررت الكويت من قبضة العراقيين. هذه العلل والأدواء قد صارت غائرة مزمنة تستعصى على البرء. لذلك بدا شعور هذا الشاعر بالإحباط عميقاً لتحول هؤلاء (العرب الإخوة) إلى (الإخوة الأعداء):

«هل لى أن أقترح الليلة

نخباً للعائلة

ونخبا لأشقاء كانوا

طلع الفجر عليهم

فانتبهوا..

لكن أعداء!»[2].

إن تمزق الصف العربى، وانهيار وحدته ادى إلى آثار سلبية رهيبة تقف دائماً على خلفية الصراع العربى الإسرائيلى، وعلى جميع جبهات المقاومة ضد العدو الغاشم، يقول الشاعر فى تقديمه- نثراً- لقصيدة الشهيد: «إلى شهداء الجنوب اللبنانى، وحدهم فى

(١) السابق نفسه- ص٨٠.

(٢) السابق نفسه- ص٨٢.

حومة المواجهة مع العدو»[1].

والشاعر خلال تلك القصيدة يقول- مخاطباً هذا الشهيد-:

«يا أيها الوجه الجميل

أيها العمر الذى تقصفت عيدانه

وصوحت أوراقه

وأصبحت ثماره

جماجماً، وأعظما

كيف ارتضيتنا

- نحن القعود، القابعين هاهنا

أبعد ما نكون عن حفائر المنون

واحتدام لحظة القرار

نحتمى بزهونا الرخيص بالحياة

كالدمى-

كيف ارتضيتنا عنك بديلاً

ثم،

وافتديتنا؟»[2].

إن الشاعر يعجب من حال هذا الشهيد الطاهر الذى فدى بنفسه أبناء العرب الذين قعدوا عن نصرته، والدفاع عنه تجاه عدوهم المشترك.

وفى ظل هذا التمزق العربى لا يقف الأمر بهذا الفدائى عند حد تحسبه لمجابهة العدو الإسرائيلى فحسب، بل إن الخيانة قد تأتى من حيث لا يتوقع؛ فقد تأتى من صديق عميل للعدو:

«وكيف تنام؟

(١) السابق نفسه- ص٨٩.

(٢) المصدر السابق- ص٩٥، ٩٦.

وكفك فوق الزناد،

ورأسك مشتعل بالحريق

تشعب سيل الفصائل

وحان شتات القبائل

فكل بواد

وكل ينادى

وكل لغايته فى طريق

فكيف الأكف الشتيتة تهتز كفا

وكيف الصفوف البديدة ترتج صفا

وكيف تنام؟

وأنت تحاذر خطو الرفيق

وهجس الشقيق

وحارسك المرتجى.. لا يفيق

وما عدت تدرى

وسيل الرصاص بكل اتجاه

أيأتيك من خائن.. أو صديق!»[1].

إن هذه القصيدة تعيد إلى الأذهان صور الأحداث التى تطورت فى أحيان كثيرة إلى مواجهات مسلحة- وقعت بين أبناء الوطن العربى الواحد كانت نتيجتها تشرذم الصف العربى. ومن ثم تشتيت جهوده، وعجزه عن مواجهة العدو الإسرائيلى الغاشم. وهنا يتوجه شاعرنا إلى الشاعر (أحمد شوقى)؛ ليبثه آلامه وأحزانه التى منى بها بعد ما آل إليه حال العرب من ضعف وهوان وتقاعس. وهى حال شجعت العدو الصهيونى على الظهور والانتصار:

«شوقى .

(١) الأعمال الشعرية- فاروق شوشة- جـ١ - لهيئة المصرية العامة للكتاب - ٢٠٠٤م ص٥٦١، ٥٦٢.

الشرق انطفأت فيه الشمس

استأسد فيه بنو الأفعى

وانتصب جدار الخوف

وليل الرعب

فهل نستسلم للأحزان

نهادن ليل الذل

ونعصر عنقوده؟»[1].

وقد أجاب هذا الشاعر المحبط عن هذا التساؤل الحائر فى قصيدة أخرى؛ فليس أمامه سوى عصر «عنقود الذل»، وتجرع مرارة مذاقه حتى أخر قطرة حتى تشبع به تماماً فسيطر على كل ما وقعت عليه عيناه، وعلى كل ما تبادر إلى مخيلته من هواجس وتنبؤات:

«أرى عجباً

وفجاءة يوم قريب

أرى سوقة فى لباس الملوك

ملوكاً عروشهم من هواء

وأيامهم حزمة من دماء

وتاريخهم بقعة من هوان

وأحلامهم من لحوم الجوارى

وركضهمو لاقتناص المزيد!

أرى عجباً

ونبوءة يوم قريب

أرى الأفق يمطر مهلا

(١) وجه أبنوسى - فاروق شوشة - ص٤٢، ٤٣.

أرى الأرض تقذف عاراً وذلا

أرى العين تذرف شوكاً ورملا»[1].

كما يلامس الشاعر د/ (محمد العزب) صميم المأساة التى تسببت من اجتياح العراق للكويت، وما تسبب فيه هذا الاجتياح من تسرب مشاعر الأسى إلى القلوب. وهو يحاول أن يضبط مشاعره؛ ليظل حديثه فى إطار إقامة الحجة والإقناع؛ بغية تفادى الأحداث الكارثية التى ستترتب على تلك الحرب العبثية.

لذا يخاطب الرئيس العراقى - الراحل - (صدام حسين)، وذلك بعد أن يعطيه «حقه فى قوله: (المهيب الركن) كأن شيئاً لم يحدث»[2]:

«المهيب الركن:

صدام حسين

قد يكون النفط..

من حقك،

أو من حقهم

لا بأس»

-«أنت تدرى

أن نهر النفط..

لا يقدر أن يصنع حلماً..

باتساع المقلتين!!

أنت تدرى..

أن آلاف البحيرات من النفط..

ولو كانت بحجم الفقد..

لا تقدر..

(١) المصدر السابق نفسه - ص٨٧، ٨٨.

(٢) نبوءات الشعر - دراسة نقدية فى شعر د. محمد أحمد العزب - محمد دياب - ص١٩٨.

أن تنجب طفلاً هارباً فى الأبوين!!

فلماذا نقتل الأطفال عفواً؟

ولماذا..

نحن عصر عربى..

يشتم الصهوة، والصحراء، والسيف،

ويغضى..

مثخن المجداف..

بين الضفتين؟؟»[1].

هكذا أطلت عبارة (نحن عصر عربى)؛ لتشير إلى أن هذا العصر هو عصر التنكر والتجهم فى وجه ماضى الأمة المجيد. وهو عصر العجز والوهن بعد أن ساد هذا العالم العربى سلاطين متآمرون يحكمون الملايين من رعاياهم الذين لا يعرفون غير التبعية العمياء، وأن يصفق لهم:

المهيب الركن:

صدام حسين!!

(عد عن ذكر القداسات،

وعن ذكر العدالات،

وعن ذكر السلالات،

فلا أنت.. -

(على)..

لا..

ولا نحن (الحسين)!!

السلاطين..

(١) الأعمال الشعرية الكاملة شعر د/ محمد أحمد العزب- ص٢٦٩، ٢٧٠.

(يزيد.. ويزيد.. ويزيد)!!

والملايين/ التكايا

تتقن التصفيق..

فى عرس..

(يزيد.. ويزيد.. ويزيد)!!

وتغنى..

وهى تبكى..

فوق أنقاض على، والحسين!!»[1].

إن حديث الشاعر مع (صدام حسين) قد بدا على هذا النحو من الهدوء والاتزان الذى دعمه الشاعر بالحجج والبراهين المنطقية. لكن الشاعر قد أخفى وراء ذلك إحباطات وآلاماً مضنية استدعى للتعبير عنها مأساة مقتل سيدنا الحسين ﷺ فى خلافة يزيد بن معاوية بن أبى سفيان). تلك المأساة تجسد صورة من أبشع الصور لنشوب صراع دموى بين فئة عربية مسلمة، وبين فئة عربية مسلمة أخرى. ويبدو أن الشاعر أراد من استحضار تلك الحادثة المأساوية الإشارة إلى الآثار السلبية الفادحة التى أدت إلى سقوط العرب والمسلمين فى أتون حروب أهلية ما زالت تداعياتها بادية حتى اليوم.

إنه نوع من إسقاط الماضى على الحاضر؛ بغية استخلاص العبر، والابتعاد عن الاقتتال الداخلى الذى لن يخلف غير مزيد من التشرذم والتفرق من جديد.

ولكن العرب لا يجيدون الإصغاء، ولا يعتبرون بما جرى. لذا وقع الغزو، وأعقبته تداعيات خطيرة نخرت فى جسد الوطن العربى، ومزقت أوصاله التى كانت أساساً قبل الغزو فى حاجة ماسة إلى ترميم، وإعادة تأهيل. فأتت تلك الحرب لتقضى على ما تبقى من آمال. وهو ما أسلم الشاعر إلى الشعور بالإحباط الذى بدا فى شعره؛ فها هو ذا يستحضر صورة النبى الكريم محمد ﷺ؛ ليبثه آلامه وأحزانه وشكواه مما صار إليه حال العرب والمسلمين من ضعف وتشتت وهوان:

(١) المصدر السابق نفسه- ص٢٧٠، ٢٧١.

«أجيئك والحزن ملء اليدين!!

وأندلس الأمس شالى..

ووجه (فلسطين) عارى..

و(لبنان) لون على اللوحتين!!»

-«أجيئك والحزن ملء اليدين

وأعرف أن الخريف خطاى..

وأنك تمنحنى موسمين!!

وأن الهزائم فى..

وأنك سيف قصاصى منى..

ومنهم..

ومن زمن هارب مرتين!!»[1].

لقد أنتجت هذه الحالة المأساوية سخرية مرة صدرت عن هذا الشاعر الذى سيطرت عليه مشاعر الإحباط؛ لما عليه واقع الحكام العرب الذين أداروا ظهورهم للعدو، وتباروا فى مواجهة بعضهم بعضا، ووجهتهم أطماعهم ونظراتهم النفعية الضيقة تجاه ممالأة العدو، والتمسح به:

«من يذكر شكل الآية..

قبل عصور التدوين الأخرى:

(فبأى معونة ربكما فى البنتاجون تكذبان)؟ [2].

والذاكرة العربية أدمنت التحريف؟

ارتجل النهد الخطأ..

على الصدر الخطأ

العشاق الخطأ..

(١) المصدر السابق نفسه- ص٢٠٤، ٢٠٥.

(٢) لا أستسيغ هذا التوجه.

حديثاً.. قالوا

(لا تثريب على السيف العربى..

إذا سارية صار..

وصفق للموساد)»[1].

إن هذه الحالة المتردية التى تسربلت بالخزى والعار ستجعل جميع الشعوب العربية فى وضع مكشوف لأعدائهم:

«أما بعد..

فالبعد استقال وقال حكمته الأثيرة:

(ليس فى الإمكان أبدع..)..»

-«هاهو القمر الذى يتجسس استرخى على رمل الخليج

فلم يعد فى الرمل ما يخفيه عنه..

وهاهو (البنتاجون اقترح (المعونة) قبلة أخرى..»[2].

إن جرأة الشاعر ذهبت به فى صراحة تامة إلى تشخيص الأدواء، وكشف أسبابها الكامنة التى صارت غائرة ومزمنة فى جسد الوطن العربى. وهى عبارة عن الخدع والدسائس التى حاكها العدو بطرق مختلفة، وتحت مسميات عدة، وانطوت على العرب فاستمرءوها واستناموا لها:

«ويكون الحزن..

الحرف التاسع والعشرون..

الآتى من سبت الآلام..

اغتصب حدود اللهجة والإعراب..

وضاجع حبر القاموس..

ونادى بسقوط الفعل..

(١) الأعمال الشعرية الكاملة- د. محمد أحمد العزب- ص٣٢١.

(٢) أتمادى تحت سقف الكتابة- د/ محمد أحمد العزب- ص١٨٣.

وقوس حول حوار الأشياء مناجل!!»

ثم يتوسل الشاعر بالشعر طالباً منه تقديم يد العون والإغاثة:

«قبل فوات الفوت..

وقبل طقوس حلول التعتيم الشامل!!!»[1].

هذه القصيدة أنشدت ١٩٨٠م أى قبل اجتياح إسرائيل جنوب لبنان عام ١٩٨٢ وقبل حربى الخليج الأولى والثانية، وهى تلك الحرب التى تدخل فيها عدد من دول العالم (وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية) إضافة إلى عدد من الدول العربية وعلى رأسها (مصر)؛ لتكوين حلف عالمى يخرج العراقيين كرها من أرض (الكويت) التى احتلوها.

إنه إذن عصر «التعتيم الشامل» الذى حذر منه الشاعر قبل وقوعه بحوالى عشر سنوات قد حل ومورست طقوسه فى أبشع صورها قتلاً وتدميراً وإراقة للدماء.

لذلك كان الشعور بالإحباط حليفاً لهذا الشاعر الذى يئس من هؤلاء الحكام المتنازعين العاجزين عن استعادة كرامة العرب الضائعة، ومجدهم البائد الذى لن يعود طالما ظل حال حكام العرب على هذا النحو المخزى من التشرذم:

«أصدق أى ادعاء يقال،

ولكننى لا أصدق..

أن ملوك الطوائف،

ورؤساء العشائر،

يمكن أن يستعيدوا لنا..

عنفوان الصهيل!!

فقد صارت الصهوة العربية..

صندوق أحذية الطغاة،»[2].

(١) انظر الأعمال الشعرية الكاملة- د/ محمد العزب- ص٢٠٠.

(٢) أتمادى تحت سقف الكتابة- د/ محمد أحمد العزب- ص٧٨.

انتهى العرب إذن إلى حالة من التشرذم يصعب معها لم شملهم، وتوحيد كلمتهم. وهو ما يعني أنهم وصلوا إلى درجة من الضعف لن يتمكنوا- بموجبها- من الذود عن كرامتهم، ويستحيل معها استعادة حقوقهم المسلوبة، وأرضهم المغتصبة وعلى رأسها بالطبع أرض فلسطين المحتلة.



الفصل الخامس

نكبة فلسطين



فلسطين جرح لم يندمل بعد ونزيفه لا يزال حاداً ومستمراً وناشباً فى ضمير العالم العربى والإسلامى ومعلقاً به؛ ما دام الاحتلال الغاشم يدنس المقدسات، وينشب مخالبه فى جسد الأمة العربية والإسلامية .

وهنا تجدر الإشارة إلى أن محاولات تهويد أرض فلسطين بإقامة وطن قومى لليهود على أرض تلك البقعة الطاهرة كان قد بدأ منذ عقود طويلة وبالتحديد منذ عشرينيات القرن العشرين منذ أن كانت فلسطين مستعمرة بريطانية- بعد أن كانت بقعة مهملة فى عهد الحكم العثمانى- وقبل تمكين اليهود من وطن قومى لهم يكون بمثابة الشوكة فى ظهور العرب، وهى شوكة تمثل اليد الطولى والامتداد الطبيعى للاستعمار الغربى الذى وجد بينه وبين اليهود مصالح مشتركة فى تمكينهم من إقامة وطنهم على أرض الشرق وخاصة فى أرض فلسطين.

وبالفعل نجحت مخططات الاستعمار وتوالى نزوح اليهود من شتى بقاع العالم على أرض فلسطين حتى أوشكوا على التهام تلك الأرض؛ لذلك يمكن القول بأن نكبة فلسطين تشكل «مأساة عميقة مست نفس كل عربى وأثارت صراعاً عسكرياً وسياسياً ممتداً كان له، وما يزال، أكبر الأثر فى أوضاع الوطن العربى وسياساته واقتصاده»[1]. فضلاً عن أن هذا الوضع المأساوى قد سدد طعنة مباشرة إلى «الإحساس القومى العربى فى الصميم»[2]. لذلك يمكن القول بأنه «ربما كانت أكبر قضية شغلت الفكر القومى هى قضية فلسطين وما نتج عنها من مأساة اللاجئين، فقد جمعت هذه المأساة بين الشعراء على صعيد واحد وخاصة عند الجيل الأول من رواد الشعر الحديث»[3]، فقد «سيطرت (فلسطين) على مشاعر الشعراء وأفكارهم فى مصر والعالم العربى كله»[4]، وخلفت فى نفوسهم مرارات لا تحد، وأوجاعاً لا تجدى معها محاولات النسيان أو التناسى. لذلك يمكن القول بأنه ما من شاعر مصرى صادق عاصر تلك المأساة إلا وتتناوب عليه

(١) الاتجاه الوجدانى فى الشعر العربى المعاصر - د/ عبدالقادر القط- سنة ١٩٩٧- ص٤٩٥.

(٢) استدعاء الشخصيات التراثية فى الشعر العربى المعاصر- د/ على عشرى زايد- ص٤١.

(٣) بناء الأسلوب فى شعر الحداثة التكوين البديعى- د/ محمد عبدالمطلب- ط ٢ - دار المعارف - ١٩٩٥م ص١٨٩.

(٤) الاتجاه الواقعى فى الشعر العربى الحديث فى مصر - د/ ثابت محمد بدارى- ص١٨٥.

مشاعر الإحباط التى تولدت من نكبة مكنت اليهود من أرض فلسطين المقدسة، وشردت الشعب الفلسطينى، وتم طرده من أرضه؛ ليتحول جله إلى مجموعة من اللاجئين المشردين فى شتى بقاع العالم، ومن بقى من هذا الشعب فى داخل فلسطين ظل يعانى القهر والقمع والإذلال والقتل والتمييز العنصرى.

ومن ثم بدا هذا الشعور بالإحباط على ما أنتجه عدد كبير من الشعراء المصريين من أشعار تبكى ضياع تلك الأرض المقدسة. وعلى رأسها بالطبع (مدينة القدس) التى اشترك الشعراء المصريون مع غيرهم من الشعراء العرب «فى حلم واحد مشترك، وهو عودة مدينة القدس إلى الحضن العربى، وإلى الهيمنة الفلسطينية من جديد، بعد أن انتزعت عنوة من العرب بعد عدوان يونية ١٩٦٧»[١].

ومن هؤلاء الشعراء أحمد عبدالمعطى حجازى الذى بدا متشائماً محبطاً؛ لما آلت إليه فلسطين وأهلها بعد النكبة:

«الأرض أصبح اسمها يهوذا
فكيف أصبحت تسمى يا قمر؟
وهل ترى تجيبنا يهوذا
إذا سألناها حناناً بالشجر!
أحلم أنى يا فلسطين أعود
أعود وحدى متسللاً إليك فى المساء
أسير تحت أنجم ساطعة
على رمال رطبة
والبحر يأتى من بعيد
وفى شراع، فى مكان ما بصيص من ضياء
يصحو قليلاً، ثم يخبو من جديد
وأنت فى شبه نشيد

(١) القدس فى الشعر العربى- إبراهيم حلمى الهيئة المصرية العامة للكتاب- ٢٠٠٨- ص٢٨١.

وأنت فى شبه نشيد تشرقين يا بلادى

تتجلين لطفلك الوحيد!»[١].

إنه التوحد مع ذلك الفلسطينى المشرد الذى يحلم يائساً بالعودة إلى بلاده التى سلبها اليهود، وتركوا شعبها نهباً للتشرد والضياع. ويعطى الشاعر للقضية بعدها المأساوى الذى سيتجلى أثره بعد مرور الأجيال:

«من يستطيع يا ترى،

أن يحمل الأمن الذى يسره آباؤنا لنا

وهم رقود فى اللحود

فندخل الدنيا شبابا!

من يستطيع أن يمد للجدود

جسراً وبابا

لينفذوا عبر الدم الهجين والمنفى إلى أبنائه

يعلموهم الكتابا

ويسألوهم الإيابا!»[٢].

وإذن فإن ما يفقده الفلسطينى المشرد عن أرضه غير قابل للتعويض أو المساومة. إنه الانتماء إلى الأرض، والإحساس بها الذى سيفقد تدفقه وجيشانه شيئاً فشيئاً حتى يستحيل رماداً:

«قد نستطيع أن نفر بالجلود

نحمل فى رحالنا الثيابا

ونحمل النقود

لكن شيئاً ما سننساه هناك فى البلد

شيئاً سيبقى بعدنا ينتحب انتحابا

(١) الأعمال الكاملة للشاعر أحمد عبدالمعطى حجازى- ص٤٢٥، ٤٢٦.

(٢) المصدر السابق- ص٤٢٤.

ويملأ الأماكن اغترابا

وبعد أن ييأس من عودتنا يموت للأبد

حينئذ نسقط ميتين فى المنفى البعيد!»[1].

هى إذن أشياء لا تشترى- على حد تعبير الشاعر أمل دنقل- إنها تتلخص فى قضية الانتماء والتواصل والإحساس بنبض هذا الوطن المسلوب الذى يطلب التضحية من أبنائه على الرغم من عدم مشاهدتهم منه إلا حنينهم إليه:

«خيمة، وعمود من النار

تلك فلسطين تطلع ثانية بعد أيلول

تطلع بعد حزيران

تطلع من زمن الشهداء،

وتمتد حتى تلامس من دمها صبية فى المخيم

لم يشهدوا من فلسطين إلا الحنين إليها

وهاهم يمدون أجسادهم لتراب فلسطين قنطرة

يملأون بأشلائهم هوة

تتحدر بين مخيمهم وسماء الجليل!»[2].

والشاعر يربط دائماً ضياع فلسطين؛ بعدم دفاع العرب عنها، وتضييعهم لها. بل تآمرهم عليها فى بعض الأحيان:

«أنهار من عسل!

أم تلك دماء فلسطين

جرت نفطاً فى أمعاء التجار

وكتاب فتاوى الطاغوت المنتخب»[3].

(١) السابق نفسه- ص٤٢٣.

(٢) المصدر السابق- ص٥٣٥.

(٣) المصدر السابق- ص٥٣٠، ٥٣١.

-«وفلسطين واقفة وحدها

خيمة فى العراء

ترد الجحافل عن ملكوت التشرد

من بعد ما فتحت لهم المدن السبع أبوابها

ودعاهم ملوك الطوائف للصيد والقنص

فى الجسد العربى الجميل!»[1].

إنه طريق شاق، ومستقبل مظلم رسمه حكام العرب المتخاذلون الذين عادوا من جديد إلى واجهة الأحداث. ولكن هذه المرة قد تلطخت أيديهم ووجوههم تماماً بعار تفريطهم وبيعهم للقضية الفلسطينية.

أما الشاعر محمد التهامى فتعالت صيحاته الصارخة؛ للمنافحة عن القضية الفلسطينية، ودحض افتراءات الكيان الصهيونى عن أحقية اليهود فى إقامة وطن قومى لهم على أرض فلسطين:

«إن الذى زيفوه كله كذب ... ما لليهود بدار أهلها عرب؟

ولو بنوا فوقها الأطواد شامخة ... وأسكنوا فى حماها كل من جلبوا

ولو تعاون فى إسكانهم دول ... وقدموا لهم كل الذى طلبوا»

-«هذى فلسطين دار العرب ما بقيت ... ما بارحوا أرضها يوماً وما ذهبوا

هم يعرفون- وما هذى بخافية ... أن الذى سلبوه ليس يستلب

هل يسرق الناس أوطاناً برمتها؟ ... هل كل ما خلف الأجيال يغتصب

هل يجذبون الثرى من تحت أرجلنا ... جذباً؟ وهل أرضنا ترضى فتنجذب؟

هل يهدمون لشعب كل عالمه ... مما بنته له الأجيال والحقب

هل يصدقون؟ وهل فى الطوق ما زعموا؟ ... والله قد كذبوا.. والله قد كذبوا»[2]

«وبما أن خصال اليهود المذمومة، البهت والخديعة والنفاق والجبن فإن الطابع

(١) المصدر السابق- ص٥٣٧.

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة- محمد التهامى- ١/ ٢٣٢، ٢٣٣.

العام لعدائهم ينهض على السرية والحرب النفسية أكثر من الصدام المسلح»[1]. لذلك عاد الشاعر إلى تأكيد تحذيراته من جديد:

قال اليهود- ويا شؤم الذى زعموا-	إن اليهود بأرض العرب قد وعدوا
شل اللسان الذى يهذى بباطلهم	شل اللسان وشلت للئام يد
إن كان أغراهم ما كان ويلهم	عند النفير إذا ما استيقظ الأسد
أقدامه فى الفرات الحر راسخة	وفى ذر النيل منه التاب واللبد
فى يومها لا نفوذ الغرب ينقذهم	منا ولا عدد يجدى ولا عدد
فى الحق والوحدة الشماء تدفعه	يأتى اليقين ويمضى الزيف والزبد»[2]

فلسطين أرض عربية لا تسترد إلا بوحدة العرب، وتكتلهم فى مواجهة هذا العدو الباغى. ولكن العرب قد بدوا على درجة من التشتت والضعف لا تمكنهم من الدفاع عن حقوق الفلسطينى المشروعة، واسترداد الأرض المغتصبة. يضاف إلى ذلك مساندة الغرب لإسرائيل التى تمثلت فى هيئة الأمم المتحدة، ومجلس الأمن الذى يرضخ لمطالب الدول الكبرى المنحازة إلى إسرائيل:

«لا القول لا الفكر لا القرطاس

لا القلم

قد أدركوا ما جنت فى الهيئة

الأمم

يا ضيعة الأمم الكبرى وقد

فضحت

فلا حياء بدا منها ولا قيم

هانت مبادؤها جهراً فمزقها

(١) فى النقد الأدبى الحديث- د/ متولى محمد البساطى. ط ٢ – مطبعة الشروق – ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م – ص١١٣.

(٢) قصائد مختارة من أعمال الشاعر محمد التهامى- الهيئة المصرية العامة للكتاب- سنة ١٩٩٨- ص٤٩.

وداسها كل من تسعى به قدم»[1].

ويقول فى موضع آخر:

«(مجلس الأمن) والوفود لديه | يا لهم من ستار ظلم ويا له
مجلس يشهد الجميع عليه | كيف يوفى خداعه واحتياله
يضمن الحق كله بقرار | موهم أن صاحب الحق ناله
يوهم الناس أنهم فى حماه | وهو يبدى شموخه واختياله
فإذا أومأ (الطغاة) إليه | راح يبدى خضوعه وامتثاله
ويسوى المظلوم بالظالم الوغد | وهذا الذى يسمى عداله!!
ويقول السلام وهو كمين | تحت ظل السلام أخفى حباله
بئسه مجلساً وبئس قراراً | بئس ما قدموا وبئس (الوكالة)»[2]

● ويصل اليأس والإحباط بهذا الشاعر إلى قمته عندما نسمعه يقول:

«ماذا تقول؟ فقد أرهقت لى أذنى | وما تقول.. كلام ليس ينفعنى
هذا الكلام سرى فى نبض أوردتى | ودب فيها دبيب السم فى البدن
جار الكلام على حقى وأنكره | كأنه فى حساب الخلق ينكرنى
يدور حول حقوقى فى مكابرة | وينزع الحق من أرضى وينزعنى»[3]

هكذا تمثل الشاعر مأساة الفلسطينى الذى طرد من أرضه، وعاش شريداً يستجدى الشفقة والعطف من الآخرين حتى مل تلك الحياة التى غلفتها الحيرة والغربة والتشرد:

«لا تلمه إذا أطال سؤاله | ضاق ذرعا بما يحس، فقاله
قسوة الحيرة المريرة دهراً | عذبته، وأفقدته احتماله
يسأل الناس حوله أين يمضى؟ | أين يلقى، وكيف يلقى مآله
يحمل العمر كله فى يديه | ليس يدرى أيان يلقى رحاله

(١) الأعمال الشعرية الكاملة- محمد التهامى- ٢/ ٤٦٤.

(٢) السابق- ١/ ٢٤٠، ٢٤١.

(٣) ذاته ٢/ ٤٦٦.

كلـــما هـــم خلـــف وهـــم رآه ... ســـراباً، فارتـــد يخشـــى ضـــلاله

واقـــف تصـــرخ الـــذئاب عليـــه ... وتقـــيم المنـــون ســـداً حيالـــه

فظـــلام الإمســـاء يشـــقى لياليـــه ... ونـــور الإصـــباح يقلـــق بالـــه

إنـــما أنـــت جاهـــل مـــا يعـــانى ... مـــثلما أنـــت جاهـــل مـــا جـــرى لـــه»

لا تقـــل صـــبركم، فهـــذا حـــديث ... كـــل مـــن جـــاء قبـــل ذلـــك قالـــه

كـــم وكـــم رددوا المقالـــة حتـــى ... لم يعـــد قولهـــا يثيـــر خيالـــه»[1]

وإذا كان الشاعر فى تلك القصيدة يستخدم ضمير الغائب، فإننا نجده فى موضع آخر يستخدم ضمير المتكلم؛ ليتحدث من خلاله عن هذا اللاجئ الفلسطينى البائس:

«أصـــبح القتـــل فى حيـــاتى طريقـــاً ... ورفيقـــاً علـــى الطريـــق وغايـــه

صـــار اســـمى إذا ذكـــرت بـــأرض ... عـــن قتيـــل بغيـــر ذنـــب كنايـــه

حـــل ذبحـــى لكـــل مـــن كـــان حتـــى ... بـــالغوا فيـــه حرفـــة وهوايـــه

غـــار أهلـــى مـــن العـــدا فتبـــاروا ... ثـــم صـــاروا أشـــد مـــنهم نكايـــه

وزع القتـــل فى المخـــيم رهـــط ... كـــان فى وهمنـــا رســـول العنايـــه

يفجـــع القتـــل إن رمتـــه يمـــين ... كنـــت فى حضـــنها نشـــدت الرعايـــه

قـــد قصـــدنا حمـــاهم ليـــت أنـــا ... مـــا لجأنـــا ولا نشـــدنا الحمايـــه»[2]

وهكذا فقد صار التقتيل والموت لازمة من لوازم الحياة لفلسطينية فى مخيمات اللاجئين، وقراهم ومدنهم يسوقه العدو الصهيونى وبعض الأنظمة العربية. وهى حالة لا تخلف غير مشاعر اليأس والإحباط، وتؤكد على فكرة ضياع الأرض بغير عودة. وهو ما يخلف شعوراً بالأسى والندم الذى يصل إلى تمنى الموت:

«يـــا ليتنـــى قـــدمت حتـــى لا أرى ... شـــعبى يشـــرد مـــن عزيـــز ترابـــه

وتشـــد مـــن قدميـــه أرض حـــرة ... عضـــت جنادلهـــا علـــى أنســـابه

وأرى جـــدار العـــرب فـــوقى ينحنـــى ... لتشـــيد «إســـرائيل» فـــوق ترابـــه»[3]

(١) الأعمال الشعرية الكاملة- محمد التهامى- ١/ ٢٣٨، ٢٣٩ .

(٢) المصدر السابق- ص٢٤٦، ٢٤٧.

(٣) المصدر السابق- ص٢٩٤.

هذا الشاعر الصادق لم تقف مشاعره المحبطة عند حدود تجاوبه مع الإنسان الفلسطيني المشرد، لكنها تجاوزت ذلك؛ لتلتصق بالمقدسات الإسلامية التي دنست تحت الاحتلال الصهيوني، وباتت تستغيث وتطلب الخلاص ولا من مجيب.

وفي هذا الإطار يبكي الشاعر مدينة القدس المحتلة بما تحمله تلك المدينة من قيم روحية في نفوس المسلمين على مر العصور؛ «فالقدس التي نظر إليها العربي المسلم في صدر الإسلام، لا تختلف في كثير عنها لابن العصور الوسطى أو ابن الألفية الثالثة، لأنها- في الحقيقة- تحمل طابع القداسة ذاته الذي لم ولن يتغير بتغير دورات الزمن في أي عصر من العصور»[1].

يقول الشاعر:

«أيا قدس دبس المكان الجليل ... وغطى على الطهر رجس أشر

وسيقت لك النار خجلانة ... وكاد ينوح عليك الشرر

وفي قدميك مضوا يحفرون ... وتشهق تحت علاك الحفر

ويحرسك المسلمون الصغار ... على حين خاف الكبار الخطر»[2]

• وبالطبع لا يمكن أن يغيب (المسجد الأقصى) عن هذا المشهد الباكي:

«سمعت «القبلة الأولى» تنوح ... وقد صرخت لحرقتها الجروح

فإن يعلو بقبتها أذان ... فهذا جرح نكبتها يصيح

فحينا نكتم الآلام كبراً ... وحينا رغم عزتها تبوح

فقد جاست بساحتها رياح ... تغير على الحصون وتستبيح

تهز رواسي الأمجاد فيها ... لتسقط عن قداستها الصروح

فهل- يا رب- تنهزم العوالي ... ويهدم شامخ الأطواد ريح»[3]

ثم يتوجه الشاعر بالتأنيب واللوم إلى المسلمين الذين قعدوا عن نصرة المسجد الأقصى، وتباطؤوا في تخليصه من أيدي اليهود؛ فضاع منهم:

---

(١) القدس في الشعر العربي- إبراهيم حلمي- ص١٠.

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة- محمد التهامي- ٢/ ٥٠.

(٣) المصدر السابق نفسه- ص٤٥٥.

«أيهــا المســلم مــاذا تقصــد؟ لم يعــد فى ذا المكــان المســجد
أنــت يــا مســلم أبطــأت الخطــى وتوانيـــت ففـــات الموعـــد
لم تقـــم للفـــرض فى ميقاتـــه بــل تركــت العمــر منــا ينفــد
وســهوتم عــن صــلاة حــرة لــو أقيمــت مــا دهانــا (المعبــد)
أذن الأقصـــى لـــدى أوقاتهـــا ودعـــاكم صـــارخاً يســـتنجد
كـــان يـــدعوكى تـــذوبوا لهفـــة لم يكـــن فى ظنـــه أن تبعـــدوا
فنكصـــتم فى ضـــياع مطبـــق لم يقــم ســيف ولم ترفــع يــد
قـــد أثاروهـــا صـــغاراً وحـــدهم ســـدوا أحجـــارهم واستشـــهدوا
أشـــعلوا النيـــران فى أجســـادهم ثـــم ظنـــوا أنهـــا لا تخمـــد
وأضـــاءوا فى غيابـــات الـــدجى عـــن يقـــين أنكـــم لـــن ترقـــدوا
فـــاتهم أن الـــدجى أغـــرقكم لم يعـــد فـــيكم ســـراج يوقـــد»
-«إننـــى أخشـــى إذا أصـــبحتمو أن يقولـــوا: إنهـــم قـــد هـــودوا»[1]

هكذا كان تخاذل العرب والمسلمين وراء ضياع المقدسات، وقد شكل ذلك سبباً مباشراً فى مشاعر الأسى التى أفقدت الشاعر صوابه، وأوقعته بين براثن الندم والحيرة والألم حتى وقفت به على مشارف الجنون:

«أكـــاد أجـــن مـــن ألمـــى وممـــا ذاق إحساســـى
ومـــن دوامـــة حيـــرى تحـــاول خنـــق أنفاســـى
تســـد منافـــذ الـــدنيا بليـــل حالـــك قاســـى
تـــرد الـــنجم تخنقـــه وتخفيـــه عـــن النـــاس
كـــأن النـــور خاصـــمنا بقلـــب جاحـــد ناســـى
ضـــربنا فى مجاهلنـــا بأخمـــاس وأســـداس
لـــماذا الهـــول غطانـــا مـــن الأقـــدام للـــراس؟[2]

وإذا كان ضمير (المتكلم المفرد) قد سجل حضوراً فى تلك القصيدة فإننا فى

(١) المصدر السابق نفسه- ص٤٥٣، ٤٥٤.

(٢) المصدر السابق نفسه- ص٤٨٤.

موضع آخر نجد أن ضمير (المتكلم الجمع) يحتل المشهد تماماً؛ ليعلن عن مأساة جماعية وصلت بهذا الشاعر إلى غاية شعوره بالإحباط:

«صرنا إذا طافت البلوى بمهلكة ... جرت وراء خطاها ألف مهلكة

بتنا حيارى على أبواب قلعتنا ... وقد غزاها الورى من كل منطقة

أسمى المعابد قد فضت قداستها ... فعربد العار فى أرض مقدسة

وطأطأ المسجد الأقصى مآذنه ... صار الأذان عليها بعض حشرجة

أقسى النوازل أن صرنا بلا أمل ... نجرى لمهزلة تفضى لمهزلة»[(1)]

كما كان لإقامة د/ عبده بدوى ردحاً من عمره فى غربة عن مصر أثر بالغ فى الإحساس بمأساة الفلسطينى اللاجئ الذى طرد من وطنه دون أمل فى الرجوع إليه:

«وفى مرة.. لاغاه طفلى ضاحكا ... «ترى أين تقضى الصيف فالصيف قد أذن؟

فأظلم منه الوجه من فوق آهة ... وأجهش فى الهدبين شىء من الحزن

وضاع مساء كان يندى بصوته ... وظللنا طير غريب من الشجن

.. تعجب طفلى، ثم قال بحسرة ... ترانى قد أخطأت«.. قلت بل الزمن!

فعمك هذا ليس يرسو بشاطئ» ... فقال «لماذا؟» قلت «ليس له وطن!»[(2)]

إن مأساة الفلسطينى تبدو فى قول الشاعر (ليس له وطن)، ولكن قصيدة (لن أعود) تفاجئنا؛ إذ يبدو الأمر كأنه إصرار من اللاجئ الفلسطينى على عدم العودة إلى وطنه، وكأن له فى ذلك اختياراً!:

«من وحى فلسطين:

-«أنا لن أعود!

أنا لم أعد إلا هتافاً شاحباً تحت البنود

فدمى يطرز تحت أجفانى الكسالى «لن تعود!»

لن تلمس الأمل الذى سيطل من فجر جديد..

(١) المصدر السابق نفسه- ص٦٢٢، ٦٢٣.

(٢) الأعمال الكاملة للشاعر عبده بدوى٢/ ٣٣٥، ٣٣٦.

ستموت لا قبر يضمك أو فراغ من نشيد..

أو غنوة مصرية.. تهتز من أفق بعيد

سأظل بين الموت أرفع من دمى

علماً يجلجل فى السماء بمأتمى

ويقول إنى «لن أعود!»

أنا لن أعود!»[١].

هكذا إذن يخف عجبنا، ويزول الإبهام تماماً؛ فالشاعر - على لسان اللاجئ الفلسطينى - لا يصر على عدم العودة إلى الديار الفلسطينية، ولكنه يصر بصورة ملحة على تثبيت إحباطه، وضياع أمله تماماً فى تلك العودة، ولذلك يكرر الشاعر عبارة (لن أعود) التى تكررت فى نهاية كل مقطع من مقاطع القصيدة؛ للتأكيد على تبلد أمله فى العودة إلى وطنه الفلسطينى المحتل بعد أن تحول هذا الوطن إلى مجرد هتافات شاحبة تحت بنود اتفاقيات السلام المتعددة دون ظهور بادرة أمل تبشر بقرب عودة الوطن المغتصب للفلسطينى المشرد. ومن ثم فقد زاد الحنين والاشتياق والتشبث بتلك العودة اليائسة:

«فى حضن يافا كان لى بيت كأحلام الزهر

نسجته أفراح الوجود بإبرتين من السحر

فالتف، واستحيا، ودار على الحديقة فى قدر

فكأنه إحدى النجوم الزرق من خلف الستر»

-«.. واليوم قد ضاعت مع النفس البشاشة والصور

بينى استحال لبومة تقعى علىَ وقع الخطر

طيرى تجمد ثم مال برأسه فوق الذكر

قمرى على ليل المساكين الحيارى.. لم يدر!

قلبى - وقد جف الوجود وضاع فى عينى - كسر»[٢].

(١) المصدر ذاته ١/ ٨٥، ٨٦.

(٢) ذاته ٢/ ١١٦، ١١٧.

ثم نلمح هذا التوسل الضارع:

«من يعطنى أرضى التى صارت بقايا محزنه

من يعطنى من حقلى المنزوع منى.. سوسنه

من يعطنى تفاحة خلف الحدود ملونه

من يعطنى موال حب كنت يوماً موطنه

من يعطنى.. أعط الحياة لأجل تلك الآونه!»[1].

إن (اللاجئ الفلسطينى) على استعداد تام للتضحية بحياته، ويقدمها عن طيب خاطر؛ ثمناً لعودته إلى وطنه. وهذا يعكس مدى الشوق الجارف الذى يجتاح كيانه الذى أبعد قسراً عن وطنه. ولذلك فإن هذا الشوق الجارف، والحنين الطاغى يبدوان فى قصيدة أخرى. هى (المتشوقون)[2]، وفيها تلوح صورة (القدس الجريحة):

«أواه للقدس الجريحة وهى تفهق فى الدماء

لما تزل فى أفقها الصلوات تقطر بالبكاء

ما زال فى الأفق المخضب ما تقطع من دعاء

وبقية من ساجدين تجمدوا قرب السماء!

الذل فوق جبينهم تطفو عليه الكبرياء»[3].

إننا نشتم من بين تلك الأسطر الشعرية نزعة متفائلة تعلى بداخل الشاعر تلك النبرات المتمسكة بضرورة العودة:

«سأعود للأرض الجريحة فى صباح مضرم

بالشعب بالشعب الذى لم ينكسر لم يهزم

بالجوع بالحقد العجوز بغربتى بجهنمى

فأعيد أرضى للظلال، وللطيور الحوم

(١) ذاته ٢/ ١١٨.

(٢) ذاته ١/ ٨٨.

(٣) المصدر السابق- ص٨٩.

لسنابل خضراء تجرى فى الخيال وترتمى

للمسجد الأقصى الذى قد كان قبلة مسلم!»[1].

ولكن يبدو أن الشاعر كان يتلهى بهذا التفاؤل المصطنع؛ ليخفى مشاعر الإحباط التى تنتابه. فتصوير الشاعر للقدس الجريحة وهى غارقة فى دمائها، وذكر المسجد الأقصى المعظم وهو فى الأسر يقطع القلوب، ويدميها؛ حسرة على تلك المقدسات التى تبوأت مكاناً علياً فى قلب كل فلسطينى، وكل إنسان عربى أو مسلم. ويضيع الأمل فى استردادها يوماً بعد يوم. لذلك بلغ الشاعر قمة اليأس وهو يعلن عن ذلك فى صورة صريحة تفتقد أى نزعة متفائلة أو أمل مرتجى فى استرجاع تلك الحقوق المغتصبة. وقد بدا ذلك واضحاً فى قصيدته «للموت أكثر من وجه» التى أهداها للشهيد «الفلسطينى (عبدالمحسن حسن) الذى ترك بعد اشتباك ينزف حتى الموت فى مطار زيورخ، ثم ترك فى ثلاجة بسويسرا ما يقرب من شهر.. فمات أكثر من موت»[2].

وقد بلغ الشعور بالإحباط قمته مع مطالبة هذا الجسد المسجى للشهيد النبيل بعودته- ولو ميتاً- إلى دياره التى طرد منها حياً، وحرم من الدفن فى ترابها بعد موته- يقول الشاعر على لسان هذا الشهيد النبيل-:

أرجعونى لجنة عشت فيها	ثم صارت جميعها منهوبه
أرجعونى إلى المعسكر حتى	أبصر النصر راية منصوبه
أرجعونى إلى الطيور، وبيت	وديار جميعها مسلوبه
أرجعونى إلى مساء حزين	كنت من غضبتى أشق جيوبه
أرجعونى.. فإننى رغم موتى	لم تزل فى لهفة مشبوبه
.. كل طير يعود إلا طيوراً	هاجرت من ديارها المنكوبه!»[3]

وعلى ذلك فقد ظلت الحالة السياسية فى مصر والوطن العربى تنتقل من سىء إلى أسوأ. وهو ما ألقى بظلاله القاتمة على نفوس عدد كبير من شعراء مصر المعاصرين بعد

(١) المصدر السابق- ص٩٠.

(٢) المصدر السابق- ص٦٥٢.

(٣) المصدر السابق- ص٦٥٤.

أن يئسوا من وجود أمل فى إصلاح تلك الحالة السياسية المتردية، فكان الشعور بالإحباط حليفاً تقليدياً لهم.

وفى ختام القول نرجو من الله عز وجل أن تتبدل تلك الأحوال المتردية بعد قيام ثورة ٢٥ يناير الرائعة، وألا تضيع سدى دماء جميع الشهداء الذين دفعوا بأرواحهم فى طريق الحرية والكرامة، وأن تتمكن الثورة من أن تؤتى أكلها وتحقق للشعب المصرى الحرية والعدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية، وأن تستعيد مصر ومعها جميع الدول العربية حقوقهم المغتصبة، وأن يعم التوحد والتعاضد والتعاون فيما بينهم.

كما نتمنى ألا يسجل فى المستقبل مثل هذا الكم من الشعراء الذين سيصيبهم الإحباط فى ثورة ٢٥ يناير إن هى أخفقت فى تحقيق آمالهم وتطلعاتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية- كما سبق وحدث من قبل-.

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل

الفهرس